□ عُلو الهِمَّة في التحلِّي بحُسْن الخُلُق □

اعلمْ - هدانا الله وإيَّاك - أنَّ « الخُلُق الحسَن صفة سيِّد المرسلين ، وأفضل أعمال الصِّدِّيقين ، وهو على التحقيق شطْر الدين ، وثمرة مجاهدة المتقين ، ورياضة المتعبدين .

والأخلاق السيئة هي السمومُ القاتلة ، والمهلكات الدامغة ، والمخازي الفاضِحة ، والرذائل الواضحة ، والخبائث المبعِدة عن جِوار ربِّ العالمين ، المنخرِطة بصاحبها في سلك الشياطين ، وهي الأبواب المفتوحة إلى نار الله الموقدة التي تطلِع على الأفئدة ، كما أنَّ الأخلاق الجميلة هي الأبواب المفتوحة من القلب إلى نعيم الجِنان ، وجوار الرحمن . والأخلاق الخبيثة أمراض القلوب ، وأسقام النفوس ، إلّا أنَّه مَرَض يُفوِّت حياة الأبد ، وأين منه المرضُ الذي لا يُفوِّت إلّا حياة الجَسَد ؟! ومهما اشتدَّتْ عناية الأطبَّاء بضبْط قوانين العلاج للأبدان ، وليس في مرضها إلّا فوْت الحياة الفانية ، فالعناية بضبْط قوانين العلاج لأمراض القلوب - وفي مرضها فوْت حياة باقية - أولى ، وهذا النوع من الطبّ واجب تعلُّمه على كلِّ ذِي لُبٍّ ؛ إذ لا يخلو قلبٌ من القلوب عن أسقام ، لو أهملتْ تراكمتْ ، وترادفت العلل وتظاهرتْ ، فيحتاج العبد إلى تأنق في معرفة علمها وأسبابها ، ثم إلى تشمير في علاجها وإصلاحها ، فمعالجتها هو المراد بقوله تعالى : ﴿ **قد أفلح مَن زكَّاها** ﴾ [الشمس : ٩] ، وإهمالها هو المراد بقوله : ﴿ **وقد خاب مَن دسَّاها** ﴾[١] [الشمس : ١٠] .

وتزكية النفوس - بالتحلِّي بالأخلاق الحسَنة ، والتخلِّي عن سيِّئها - مطلب عظيمٌ وربْع الرسالة المحمدية[٢] ، ولذا أقسَم الله عز وجل أحدَ عشر

(١) إحياء علوم الدين ٣/٥٣ .
(٢) لقوله تعالى : ﴿ يتلو عليهم آياتِهِ ويزكِّيهم ويعلِّمهُم الكتاب والحكمة ﴾ .

قسَمًا متتاليًا - لم تأت إلّا في موضع واحد من القرآن الكريم - على أنَّ الفلاح مَنوط بتزكية النفوس ؛ قال تعالى : ﴿ **والشمسِ وضُحاها والقمرِ إذا تلاها والنهارِ إذا جلّاها والليلِ إذا يغشاها والسماءِ وما بناها والأرضِ وما طحاها ونفسٍ وما سوّاها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلَح مَن زكَّاها وقد خاب من دسَّاها** ﴾ [الشمس : ١ - ١٠] . وقال سبحانه : ﴿ **قد أفلح مَن تزكَّى وذكر اسمَ ربِّه فصلَّى** ﴾ [الأعلى : ١٤ - ١٥] .

وتزكية النفوس ملاك دعوة الرسل بعد التوحيد ؛ فهذا موسى عليه السلام يقول لفرعون : ﴿ **هل لكَ إلى أن تزكَّى وأهديَك إلى ربِّك فتخشىٰ** ﴾ [النازعات : ١٨ - ١٩] :

وتزكية النفوس سببُ الفوز بالدَّرجات العلىٰ والنعيم المقيم ، كما قال عز وجل : ﴿ **ومَن يأْتِهِ مؤمنًا قد عمِل الصالحاتِ فأولئكَ لهمُ الدرجاتُ العُلىٰ جناتُ عدنٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء مَن تزكَّى** ﴾ [طه : ٧٥ - ٧٦] .

وكان مِن دعائه ﷺ : « اللهمَّ آتِ نفسي تقواها ، وزكِّها أنتَ خير مَن زكَّاها ، أنتَ وليُّها ومَوْلاها »(١) .

وجعل النبي ﷺ تزكيَة النفس إحدىٰ الخصال الموجبة لذَوْقِ طعْم الإيمان ، وفسَّر التزكية بإحدىٰ مراتب الإحسان ، وهو أعلى مقامات الدين ، وهو أنْ يعلمَ أن الله عزَّ وجل معه حيث كان ؛ قال رسول الله ﷺ : « ثلاث مَن فعَلَهُنَّ فقد ذاق طعْمَ الإيمان : مَن عبَدَ الله عز وجل وحده بأنه لا إله إلا هو . وأعطى زكاةَ ماله طيِّبة بها نفسُه في كلِّ عام ، ولم يُعط الهَرِمة ، ولا الدرنة ، ولا المريضة ، ولكن مِن أواسط أموالكم ؛ فإن الله عز وجل لم يسألكم خيرها ، ولم يأمركم بشرها . وزكَّى نفسَه » . فقال رجل : وما تزكية النفس ؟ فقال : « أن يعلم أن الله عز وجل معه حيث.........................

---

(١) أخرجه مسلم .

كان »[1] .

تزكيةُ النفوسِ مُسلَّم إلى الرسل :

قال ابن القيم:« إن تزكيةَ النفوس مُسَلَّم إلى الرسل ، وإنما بعثهم الله لهذه التزكية وولَّاهم إياها ، وجعلها على أيديهم دعوة وتعليمًا ، وبيانًا وإرشادًا ، لا خلقًا ولا إلهامًا ؛ فهم المبعوثون لعلاج نفوس الأمم ، قال الله تعالى : ﴿ **هو الذي بعث في الأميين رسولًا منهم يتلو عليهم آياته ويزكِّيهم ويعلِّمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا مِن قبل لَفي ضلال مبين** ﴾ [الجمعة : ٢].وقال تعالى : ﴿ **كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكِّيكم ويعلِّمكم الكتابَ والحكمةَ ويعلِّمكم ما لم تكونوا تعلمون فاذكروني أذكرْكُم واشكروا لي ولا تكفرون** ﴾ [البقرة : ١٥١ ، ١٥٢] .

وتزكية النفوس أصعبُ مِن علاج الأبدان وأشدُّ ؛ فمَن زكَّى نفسه بالرياضة والمجاهدة والخلوة ، التي لم يجئ بها الرسل ؛ فهو كالمريض الذي يعالج نفسه برأيه،وأين يقع رأيه مِن معرفة الطبيب ؟! فالرسل أطبَّاء القلوب ، فلا سبيل إلى تزكيتها وصلاحها إلا مِن طريقهم ، وعلى أيديهم ، وبمحْض الانقياد ، والتسليم لهم،والله المستعان »[2] .

وقال: « الأبدان الزاكية هي التي زكَتْ بطاعة الله ، ونبتَتْ على أكْل الحلال ، فمتى خلصت الأبدان مِن الحرام وأدناس البشرية التي ينهى عنها العقل والدين والمروءة ، وطهرت الأنفسُ مِن علائق الدنيا ؛ زكَتْ أرض القلب ، فقبلتْ بذرَ العلوم والمعارف ؛ فإنْ سُقيت بعد ذلك بماءِ الرياضة الشرعية – وهي التي لا تخرج عن علْم ، ولا تبعد عن واجب ، ولا تُعطِّل سنة – أنبتت

---

(١) صحيح : أخرجه الطبراني في المعجم الصغير ، والبيهقي في السنن ، وصحَّحه الألباني في الصحيحة رقم ١٠٤٦ .

(٢) مدارج السالكين ٢/٣١٥ .

من كلِّ زوجٍ كريمٍ ، مِن علْمٍ وحكمةٍ وفائدةٍ »[1] .

وَقَفَاتٌ مع قوله تعالى لرسوله ﷺ : ﴿ وإنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ :

رضي الله عن ابن عباس حين قال مفسرًا هذه الآية : « لعلى دين عظيم ، لا دين أحبُّ إليَّ ولا أرضىٰ عندي منه ، وهو دين الإسلام » . فجعل الدين كلَّه خلقًا ، فمن زاد عليك في الخُلُق ، فقد زاد عليك في الدين .

وقال الحسن رضي الله عنه : هو آداب القرآن .

وقال ابن القيم : إنك لعلىٰ الخلق الذي آثرك الله به في القرآن .

وفي الصحيحيْن : أن هشام بن حكيم « سأل عائشة رضي الله عنها عن خُلُق رسول الله ﷺ ، فقالت : كان خلُقه القرآن . فقال : لقد هممتُ أن أقوم ولا أسأل شيئًا » .

هكذا « تجيء الشهادة الكبرى والتكريم العظيم : ﴿ **وإنك لعلىٰ خلق عظيم** ﴾ [القلم : ٤] ، وتتجاوب أرجاء الوجود بهذا الثناء الفريد على النبي الكريم ﷺ ، ويثبت هذا الثناء العلوي في صميم الوجود . ويعجز كلُّ قلمٍ ، ويعجز كل تصوُّر عن وصف قيمة هذه الكلمة العظيمة من ربِّ الوجود ، وهي شهادة من الله ، في ميزان الله لعبد الله ، يقول له فيها : ﴿ **وإنك لعلىٰ خلُق عظيمٍ** ﴾ . ومدلول الخلُق العظيم هو ما هو عند الله ، ممَّا لا يبلغ إلى إدراك مداه أحدٌ من العالمين !

ودلالة هذه الكلمة العظيمة على عظمة محمد ﷺ ، تبرز من نواحٍ شتَّى :

تبرز من كوْنها كلمة من الله الكبير المتعال ، يسجّلها ضميرُ الكون ، وتثبت في كيانه وتتردَّد في الملأ الأعلى إلى ما شاء الله .

---

(١) مدارج السالكين ٢/٣١٥ . انظر كتاب : معالم في السلوك وتزكية النفوس لعبد العزيز بن محمد العبد اللطيف – دار الوطن .

وتبرز من جانب آخر ، من جانب إطاقة محمد ﷺ لتلقيها ، وهو يعلم مَنْ ربُّه هذا ، قائل هذه الكلمة ؛ ما هو ؟ ما عظمته ؟ ما دلالة كلماته ؟ ما مداها ؟ ما صداها ؟ ويعلم مَن هو إلى جانب هذه العظمة المطلَقة ، والتي يدرك هو منها ما لا يدركه أحد من العالمين .

إن إطاقة محمد ﷺ لتلقِّي هذه الكلمة من هذا المصدر ، وهو ثابت لا ينسحق تحت ضغطها الهائل ، ولو أنها ثَناء ، ولا تتأرجح شخصيته تحت وقْعِها وتضطرب .. تلقِّيه لها في طمأنينة وفي تماسك وفي توازن – هو ذاته دليل على عظمة شخصيته فوق كلِّ دليل .

ولقد رُويت عن عظمة خُلُقه في السيرة وعلى لسان أصحابه : رواياتٌ متنوِّعة كثيرة ، وكان واقِعُ سيرته أعظم شهادة من كل ما رُوي عنه ، ولكنّ هذه الكلمة أعظم بدلالتها من كلِّ شيء آخر .. أعظم بصدورها عن العليِّ الكبير ، وأعظم بتلقِّي محمد ﷺ لها وهو يعلم مَنْ هو العلي الكبير ، وبقائه بعدها ثابتًا راسخًا مطمئنًّا ، لا يتكبَّر على العباد ، ولا ينتفخ ولا يتعاظم ، وهو الذي سمِع ما سمِع من العلي الكبير !

والله أعلم حيث يجعل رسالته ، وما كان إلّا محمد ﷺ – بعظمة نفسه هذه – مَن يحمل الرسالة الأخيرة بكلِّ عظمتها الكونية الكبرى ، فيكون كُفئًا لها ، كما يكون صورة حيَّة منها .

إن هذه الرسالة من الكمال والجمال ، والعظمة والشموخ ، والصدق والحقِّ ؛ بحيث لا يحملها إلّا الرجل الذي يُثني عليه الله هذا الثناء ، فتُطيق شخصيته كذلك تلقي هذا الثناء ، في تماسُكٍ وفي توازنٍ ، وفي طمأنينة القلب الكبير ، الذي يسع حقيقةَ تلك الرسالة وحقيقة هذا الثناء العظيم .

إن حقيقة هذه النفس من حقيقة هذه الرسالة ، وإن عظمة هذه النفس

من عظمة هذه الرسالة ، وإن الخلُق المحمدي - كالحقيقة الإسلامية - لأبعدُ مِن مدى أي مجهرٍ يملكه بَشَرٌ ، وقصارىٰ ما يملكه راصدٌ لعظمة هذه الحقيقة أن يراها ولا يحدِّد مَداها ، وأنْ يُشير إلى مسارها الكوني دون أن يحدِّد هذا المسار .

ومرةً أخرىٰ أجد نفسي مشدودًا للوقوف إلى جوار الدلالة الضخمة لتلقِّي رسول الله ﷺ لهذه الكلمة من ربِّه ، وهو ثابت راسخ متوازِنٌ مطمئنٌّ الكيان .. لقد كان - وهو بشرٌ - يُثني على أحد أصحابه ، فيهتزُّ كيان صاحبه هذا وأصحابه ، من واقع هذا الثناء العظيم ، وهو بَشَرٌ ، وصاحبه يعلم أنه بشر ، وأصحابه يدركون أنه بَشَر . إنه نبيٌّ .. نعم ، ولكن في الدائرة المعلومةِ الحدود ، دائرة البشرية ذات الحدود ، فأمّا هو فيتلقَّى هذه الكلمة من الله ، وهو يعلم مَنْ هو الله ، هو بخاصَّةٍ يعلم مَن هو الله ، هو يعلم منه ما لا يعلمه سواه ، ثم يصطبر ويتماسك ، ويتلقَّى ويسير .. إنه أمر فوق كلِّ تصوُّر وفوق كل تقدير !! إنه محمد ﷺ وحدَه هو الذي يرقىٰ إلى هذا الأفْقِ مِن العظمة ، إنه محمد ﷺ .. وحده هو الذي يبلغ قمَّة الكمال الإنساني .إنه محمد ﷺ وحدَه هو الذي يكافئ هذه الرسالة الكونية العالمية الإنسانية ، حتى لتتمثَّل في شخصهِ حيَّة ، تمشي على الأرض في إهابِ إنسان .. إنه محمد ﷺ وحده الذي علِم الله منه أنه أهل لهذا المقام ، والله أعلمُ حيثُ يجعل رسالته ، وأعلَنَ في هذه أنه على خُلُقٍ عظيم ، وأعلن في الأخرى أنه جلَّ شأنه ، وتقدَّستْ ذاته وصفاته - يصلّي عليه هو وملائكته »[1] .

أصَالَةُ العنْصرِ الأخلاقِيّ في الإسلام :

قال الشيخُ سيِّد قطب رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ **وإنَّك لَعَلىٰ خلُقٍ عظيم** ﴾:« إن لهذه اللَّفتةِ دلالتَها على تمجيد العنصر الأخلاقي في ميزان الله ،

(١) الظلال ٦/٣٦٥٦ - ٣٦٥٧ .

وأصالة هذا العنصر في الحقيقة الإسلامية . والناظر في هذه العقيدة كالناظر في سيرة رسولها ﷺ،يجد العنصر الأخلاقي بارزًا أصيلًا فيها ، تقوم عليه أصولها التشريعية وأصولها التهذيبيَّة على السَّواء ؛ الدعوة الكبرىٰ في هذه العقيدة إلى الطهارة والنظافة ، والأمانة والصدق ، والعدل والرحمة ، والبرِّ وحفْظ العهد ، ومطابقة القول للفعل ، ومطابقتهما معًا للنيَّة والضمير ، والنهي عن الجور والظلم ، والخداع والغشِّ ، وأكل أموال الناس بالباطل والاعتداء على الحرمات والأعراض ، وإشاعةِ الفاحشة بأيَّة صورة من الصور.والتشريعاتُ في هذه العقيدة لحماية هذه الأسس وصيانة العنصر الأخلاقي ؛ في الشعور والسلوك ، وفي أعماق الضمير ، وفي واقع المجتمع ، وفي العلاقات الفردية والجماعية والدولية على السواء . والرسول الكريم ﷺ يقول : « إنما بُعثتُ لأُتمِّم مكارم الأخلاق » ؛ فيلخِّص رسالته في هذا الهدَف النبيل ، وتتوارد أحاديثه تترىٰ في الحضِّ على كلّ خلُقٍ كريم ، وتقوم سيرته الشخصية مثالًا حيًّا وصفحة نقية ، وصورة رفيعة تستحقُّ من الله أن يقول عنها في كتابه الخالد : ﴿ **وإنك لعَلىٰ خلُقٍ عظيم** ﴾ ، فيمجِّد بهذا الثناء نبيَّه ﷺ كما يمجِّد به العنصر الأخلاقي في منهجه ، الذي جاء به هذا النبي الكريم ﷺ ، ويشدّ به الأرض إلى السماء ، ويعلِّق به قلوب الراغبين إليه سبحانه ، وهو يدلُّهم على ما يحبُّ ويرضىٰ من الخُلق القويم .

وهذا الاعتبار هو الاعتبار الفذُّ في أخلاقيَّة الإسلام ، فهي أخلاقية لم تنبع من البيئة ، ولا من اعتبارات أرضية إطلاقًا ، وهي لا تُستمدُّ ولا تعتمد على اعتبار من اعتبارات العُرْف أو المصلحة أو الارتباطات التي كانت قائمة في الجيل ، إنما تُستمدُّ من السماء وتعتمد على السماء .. تستمدّ من هُتاف السماء للأرض لكي تطّلع إلى الأفق ، وتستمدّ من صفات الله المطلقة ليحقِّقها البَشَر في حدود الطاقة ، كي يحقِّقوا إنسانيَّتهم العليا ، وكي يصحبوا أهلًا لتكريم الله لهم واستخلافهم في الأرض ، وكي يتأهَّلوا للحياة الرفيعة الأخرى في مقعَدِ صِدْق عند مليكٍ مُقْتدِر ، ومِن ثَمَّ فهي غير مقيَّدة ، ولا محدودة بحدود ، من

أي اعتبـارات قائمة في الأرض ، إنما هي طليقة ترتفع إلى أقصى ما يُطيقـه البشر ؛ لأنها تتطلّع إلى تحقيق وظهور آثار صفات الله الطليقة من كلّ حدٍّ ومن كلِّ قيد . ثم إنها ليست فضائل مفردة ؛ صدق وأمانة وعدل ورحمـة وبرّ ، إنما هي منهج متكامل تتعاون فيه التربية التهذيبيَّة مع الشرائع التنظيميَّة ، وتقوم عليه فكرة الحياة كلّها واتجاهاتها جميعًا ، وتنتهي في خاتمة المطـاف إلى الله ، لا إلى أيِّ اعتبار آخر من اعتبارات هذه الحياة .

وقد تمثَّلت هذه الأخلاقية الإسلامية- بكمالها وجمالها ، وتوازنها واستقامتها ، واطِّرادها وثباتها- في محمد ﷺ ، وتمثَّلت في ثناء الله العظيم ، وقوله : ﴿ **وإنك لعلى خلُقٍ عظيم** ﴾ »[1] .

وقد جمع الله له مكارم الأخلاق في قوله تعالى : ﴿ **خذِ العفو وأْمُرْ بالعُرْف وأعرضْ عن الجاهلين** ﴾ [الأعراف : ١٩٩]. قال جعفر بن محمد : أمَرَ الله نبيَّه ﷺ بمكارم الأخلاق ، وليس في القرآن آيةٌ أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية.ولا ريب أن للمطاع مع الناس ثلاثة أحوال :

أحدها : أمْرهم ونهيُهم بما فيه مصلحتهم .

الثاني : أخْذه منهم ما يبذلونه مما عليهم من الطاعة .

الثالث : أن الناس معه قسمان : موافقٌ له موالٍ ، ومعادٍ له معارض . وعليه في كل واحد من هذه واجب :

فواجبـه في أمرهم ونهيهم : أن يأمر بالمعروف ، وهو المعـروف الـذي به صلاحهم وصلاح شأنهم ، وينهاهم عن ضدِّه .

وواجبه فيما يبذلونه له من الطاعة : أن يأخذ منهم ما سهل عليهم ، وطوَّعت له به أنفسهم ، سماحةً واختيارًا، ولا يحملهم على العَنَت والمشقَّـة فيُفْسِدهم .

---

(١) ظلال القرآن ٦/٣٦٥٧ - ٣٦٥٨ .

وواجبه عند جهْل الجاهلين عليه : الإعراض عنهم ، وعدم مقابلتهم بالمِثْل والانتقام منهم لنفسه ؛ فقد قال الله تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ **خذِ العفو وأْمُرْ بالعُرْف وأعرِض عن الجاهلين** ﴾ .

قال عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما : أمَر الله نبيه أن يأخذ العفو من أخلاق الناس .

وقال مجاهد : يعني خُذِ العفو من أخلاق الناس وأعمالهم من غير تحسيس ، مثل : قبول الأعذار ، والعفو والمساهلة ، وترك الاستقصاء في البحث ، والتفتيش عن حقائق بواطنهم .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : خذْ ما عفا لك من أموالهم . وهو الفاضل عن العيال ، وذلك معنى قوله تعالى : ﴿ **ويسألونك ماذا ينفقون قلِ العفو** ﴾ [البقرة : ٢١٩] .

ثم قال تعالى : ﴿ **وأْمر بالعرف** ﴾ ، وهو كل معروف . وأعْرَفُه : التوحيد ، ثم حقوق العبودية وحقوق العبيد .

ثم قال تعالى : ﴿ **وأعرض عن الجاهلين** ﴾ يعني إذا سفه عليك الجاهلُ ، فلا تقابله بالسَّفَه ؛ كقوله تعالى : ﴿ **وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلامًا** ﴾ [الفرقان : ٦٣] ، وعلى هذا فليست بمنسوخة ، بل يُعرض عنه مع إقامة حقِّ الله عليه ، ولا ينتقم لنفسه .

وهكذا كان خلُقه ﷺ ؛ قال أنس رضي الله عنه : « كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقًا » . وقال : « ما مسستُ ديباجًا ولا حريرًا ألْيَنَ من كفِّ رسول الله ﷺ ، ولا شممتُ رائحة قطُّ أطيب من رائحة رسول الله ﷺ . ولقد خدمتُ رسول الله ﷺ عشر سنين ، فما قال لي قطُّ : أُفٍّ ؛ ولا قال لشيء فعلتُه : لِمَ فعلْتَهُ ؟ ولا لشيء لم أفعلْه : ألا فعلتَ كذا ؟ » . متفق عليهما .

وأخبر رسول الله ﷺ « أن البرَّ : هو حسن الخلق » .

وفي صحيح مسلم عن النوَّاس بن سمعان رضي الله عنه قال : « سألتُ رسول الله ﷺ عن البرِّ والإثم ، فقال : البرّ حسْنُ الخُلُق ، والإثم ما حاك في صدرك ، وكرهت أن يطلع عليه الناس » .

فقَابلَ البر بالإثم ، وأخبر أن البر حُسْن الخلُق ، والإثمَ حوازُّ الصدور . وهذا يدل على أنَّ حسن الخلق : هو الدين كله ، وهو حقائق الإيمان ، وشرائع الإسلام ؛ ولهذا قابله بالإثم .

وفي حديث آخر : « البر ما اطمأنَّت إليه النفس ، والإثم ما حاك في الصدر » . وقد فسر حسن الخلق بأنه البرُّ ، فدلّ على أنَّ حسْنَ الخلق : طمأنينة النفس والقلب ، والإثم : حواز الصدور ، وما حاك فيها واسترابتْ به . وهذا غيرُ حسْن الخلق وسوئه في عرْف كثير من الناس ؛ كما سيأتي في الصحيحيْن عن رسول الله ﷺ : « خياركم : أحاسنكم أخلاقًا » .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما ، عنه ﷺ : « أنا زعيمٌ ببيتٍ في رَبَض الجنة لمن ترك المِرَاء وإن كان محقًّا ، وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازِحًا ، وببيت في أعلى الجنة لمن حسُن خلُقه » . رواه الطبراني . وإسناده صحيح .

فجعل البيت العلويَّ جزاءً لأعلى المقامات الثلاثة ، وهي حُسْن الخلُق . والأوسط لأوسطها ، وهو ترك الكذب . والأدنى لأدناها ، وهو ترك المماراة وإن كان معه حقٌّ . ولا ريبَ أن حسن الخلق مشتمِل على هذا كلِّه .

أحاديثُ عَطِرَة في الحثِّ علىٰ حُسْن الخُلُق :

قال رسول الله ﷺ : « اتقِ الله حيثما كنتَ ، وأتبعِ السيئةَ الحسنةَ تمْحُها ، وخالقِ الناسَ بخُلُق.........................

حسن »[١] .

وقال ﷺ : « أثقلُ شيءٍ في الميزانِ : الخُلُقُ الحسنُ »[٢] .

وقال ﷺ : « أثقلُ شيءٍ في ميزانِ المؤمنِ خلُقٌ حسنٌ ؛ إنَّ الله يُبغضُ الفاحشَ المتفحِّش البذيَّ »[٣] .

وقال ﷺ : « أحبُّ عبادِ الله إلى الله أحسنهمْ خلقًا »[٤] .

وقال ﷺ : « استقِمْ وليْحسُنْ خُلقُكَ للناسِ »[٥] .

وقال رسول الله ﷺ : « أفضلُ المؤمنينَ أحسنُهمْ خلقًا »[٦] .

وقال ﷺ : « أقربكم مني مَجلسًا يومَ القيامةِ : أحسنكم خُلقًا »[٧] .

وقال ﷺ : « أكملُ المؤمنينَ إيمانًا أحسنُهم خُلقًا »[٨] .

---

(١) رواه أحمد والترمذي والحاكم ، والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي ذرٍّ ، وأحمد والترمذي والبيهقي في شعب الإيمان عن معاذ ، وابن عساكر عن أنس ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٩٦ .

(٢) رواه ابن حبان عن أبي الدرداء ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٣٣ .

(٣) رواه البيهقي في السنن عن أبي الدرداء ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٣٤ .

(٤) رواه الطبراني في الكبير عن أسامة بن شريك ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٧٧ .

(٥) رواه الطبراني في الكبير ، والحاكم في المستدرك ، والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمرو ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٩٦٢ .

(٦) رواه ابن ماجه ، والحاكم في المستدرك عن ابن عمر ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ١١٣٩ .

(٧) رواه ابن النجار عن علي ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ١١٨٧ .

(٨) رواه أحمد وأبو داود وابن حبان ، والحاكم في المستدرك عن أبي هريرة ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٢٤١ .

وقال ﷺ : « أكمـلُ المؤمِنينَ إيمـانًا أحسنُهـمْ خُلقًـا ، الموطئـون أكْنافًا ، الَّذينَ يأْلَفونَ ويُؤلَفونَ ، ولا خيرَ فِي مَنْ لا يأْلَفُ ولا يُؤلَفُ »[١] .

وقال ﷺ : « أكمل المؤمِنينَ إيمانًا أحسنُهمْ خُلقًا ، وخِيارُكمْ خِيارُكمْ لِنسائِهمْ »[٢] .

وقال ﷺ : « إنَّ أحبَّكم إليَّ وأقربكم مني في الآخرةِ مجالِسَ أحاسنُكمْ أخلاقًا ، وإنَّ أبغضكم إليَّ وأبعدكم مني في الآخرةِ أسوَأُكم أخلاقًا ، الثرثارُونَ المتفيهقونَ المتشدِّقون »[٣] .

وقال ﷺ : « إنَّ أقربَكمْ مني مَنزِلًا يومَ القيامة : أحاسنُكمْ أخلاقًا في الدُّنيا »[٤] .

وقال ﷺ : « إنَّ أكمل المؤمنينَ إيمانًا أحسنُهمْ خُلقًا ، وإن حُسنَ الخُلقِ لَيبلُغُ درجة الصوْم والصلاة »[٥] .

وقـال ﷺ : « إن الرجلَ ليدرِكُ بحسنِ خلقِهِ درجاتِ قائـمِ الليـلِ ، صائمِ النَّهار »[٦] .

---

(١) رواه الطبـراني في الأوسـط عـن أبي سعيـد ، وحسَّنه الألبـاني في صحيـح الجـامع رقم ١٢٤٢ .

(٢) رواه التـرمـذي وابـن حبـان عـن أبي هـريرة وصحَّحـه الألبـاني في صحيـح الجـامع رقم ١٢٤٣ .

(٣) رواه أحمد وابن حبان ، والطبراني في الكبير ، والبيهقي في شعب الإيمـان عـن أبي ثعلبـة الخشني ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٥٣١ . والمتفيهقون : أي المتكبِّرون .

(٤) رواه ابن عساكر عن أبي هريرة ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٥٦٩ .

(٥) رواه البزار عن أنس ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٥٧٤ .

(٦) رواه أحمد ، والحاكم في المستدرَك عن عائشة ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامـع رقم ١٦١٧ .

وقال ﷺ : « إنَّ الرجلَ لَيُدرك بحسْن خلقِه درجةَ القائمِ بالليلِ الظامئ بالهواجر »[١] .

وقال رسول الله ﷺ : « إنَّ الله تعالى جميلٌ يحبُّ الجمال ، ويحبُّ معاليَ الأخلاقِ ، ويكرهُ سفسافَها »[٢] .

وقال ﷺ : « إنَّ الله تعالى يحِبُّ معاليَ الأمورِ وأشْرَافَها ، ويكرهُ سَفْسافها »[٣] .

وقال ﷺ : « إنَّ المؤمنَ لَيُدركُ بحسْنِ الخُلقِ درجةَ القائمِ الصائم »[٤] .

وقال ﷺ : « إنَّ المسلمَ المُسَدَّدَ[٥] لَيُدركُ دَرَجَةَ الصَّوَّامِ القوَّامِ بآياتِ الله ، بحسْنِ خلُقه وكرمِ ضريبتِهِ[٦] »[٧] .

وقال ﷺ : « إنَّ النَّاسَ لمْ يُعطَوْا شيئًا خيرًا منْ خلُقٍ حسَنٍ »[٨] .

---

(١) رواه الطبراني في الكبير عن أبي أمامة ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٦١٧ .

(٢) رواه الطبراني في الأوسط عن جابر ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٧٣٩ .

(٣) رواه الطبراني في الكبير عن الحسين بن علي ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٨٨٦ .

(٤) رواه أبو داود وابن حبان عن عائشة ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٩٢٨ .

(٥) المسدد : أي المستقيم على أمر الله .

(٦) كرَمَ ضريبته : أي حُسْن طبيعته وسجيته .

(٧) رواه أحمد والطبراني في الكبير عن ابن عمرو ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٩٤٥ .

(٨) رواه الطبراني في الكبير عن أسامة بن شريك ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٩٧٣ .

وقال ﷺ : « إنَّ لله تعالى آنيةً من أهلِ الأرض ، وآنيةُ ربِّكم قلوبُ عباده الصالحين ، وأحبُّها إليه ألينُها وأرقُّها »(١) .

وقال ﷺ : « إنّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إلَيَّ أحسنَكُمْ أخلاقًا »(٢) .

وفي سنن الترمذي ، وصحّحه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ؛ أن رسول الله ﷺ سُئل عن أكثر ما يُدْخل الناس الجنة ، فقال : « تقوى الله ، وحسن الخُلق » . وسُئل عن أكثر ما يدخل الناس النار ، فقال : « الفم والفرج »

وقال ﷺ : « إنَّ منْ أحَبكُمْ إلَيَّ وأقرَبكُمْ منِّي مَجلسًا يومَ القيامةِ : أحاسِنَكُمْ أخلاقًا ، وإنَ أبغَضَكُمْ إلَيَّ وأبعَدَكُمْ منِّي يومَ القيامةِ : الثَّرثارُونَ ، والمتشدِّقون ، والمتَفيهِقونَ » . قالوا : يا رسولَ الله ، ما المُتَفيهِقونَ ؟ قال : « المتكبِّرون »(٣) .

وقال رسول الله ﷺ : « إنّما بُعِثْتُ لِأتَمِّمَ صالحَ الأخلاق »(٤) .

وقال رسول الله ﷺ : « بُعِثْتُ لأتمِّمَ صالحَ الأخلاقِ »(٥) .

وقال رسول الله ﷺ : « خِيارُكمْ أحاسِنكم أخلاقًا »(٦) .

---

(١) رواه الطبراني في الكبير عن أبي عنبسة وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢١٥٩ .

(٢) رواه البخاري عن ابن عمرو .

(٣) رواه الترمذي عن جابر ، وحسّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢١٩٧ .

(٤) رواه ابن سعد ، والبخاري في الأدب ، والحاكم في المستدرك ، والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة ، وصحّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٣٤٥ .

(٥) رواه الحاكم في المستدرك ، والبيهقي في السنن عن أبي هريرة ، وصحّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٨٣٠ .

(٦) رواه أحمد ، والبخاري ، ومسلم ، والترمذي عن ابن عمرو .

وقال ﷺ : « خِيارُكمْ أحاسِنُكمْ أخلاقًا ، المُوَطئُونَ أكنافًا ، وشِرارُكمْ الثّرثارون ، المُتفيهِقونَ ، المُتشدِّقونَ »[١] .

وقال ﷺ : « خيرُ الناسِ أحسنهم خُلقًا »[٢] .

وقال ﷺ : « خيرُكم مَن يُرجىٰ خيرُهُ ، ويُؤمَنُ شرُّهُ ، وشرُّكم مَنْ لا يُرجىٰ خيْرهُ ولا يُؤمَنُ شرُّهُ »[٣] .

وقال ﷺ : « خيرُكمْ إسلامًا أحاسنُكمْ أخلاقًا إذا فقِهُوا »[٤] .

وقال ﷺ : « خيرُ ما أُعطيَ الناسُ خُلقٌ حَسنٌ »[٥] .

وقال ﷺ : « عليكَ بحسنِ الخُلقِ ، وطولِ الصَّمْتِ ؛ فوَالَّذِي نفسي بيدِهِ ، ما تَجَمَّلَ الخلائقُ بمِثلِهما »[٦] .

وقال ﷺ : « ليسَ شيءٌ أثقلَ في الميزانِ من الخُلُق الحسن »[٧] .

وقال ﷺ : « ما شيءٌ أثقلَ في ميزانِ المؤمنِ يومَ القيامةِ من خلُقٍ حسنٍ ؛ فإنَّ الله تعالى يُبغضُ الفاحِشَ البذيَّ »[٨] .

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٢٥٥ .

(٢) رواه الطبراني في الكبير عن ابن عمر ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٢٨٢ .

(٣) رواه أبو يعلى في مسنده عن أنس ، وأحمد والترمذي عن أبي هريرة ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٣١٥ .

(٤) رواه البخاري في الأدب ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٣٠٧ .

(٥) رواه أحمد والنسائي وابن ماجه ، والحاكم في المستدرك عن أسامة بن شريك ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٣١٦ .

(٦) رواه أبو يعلى في مسنده عن أنس ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٩٢٧ .

(٧) رواه أحمد عن أبي الدرداء ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٢٦٦ .

(٨) رواه الترمذي عن أبي الدرداء ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٥٠٨ .

وقال ﷺ : « ما من شيء يُوضع في الميزان أثقلَ من حسْن الخلق ، وإنَّ صاحب حسن الخلق لَيبلُغُ به درجةَ صاحب الصَّوم والصَّلاةِ »[(١)] .

وقال ﷺ : « مَن كان سَهلًا هيِّنًا ليِّنًا ، حرَّمه الله على النَّار »[(٢)] .

وقال ﷺ : « المؤمنونَ هيِّنونَ ليِّنونَ ، كالجملِ الأَنِفِ[(٣)] ، إنْ قِيدَ انقادَ ، وإذا أُنيخَ على صخرةٍ استناخ[(٤)] »[(٥)] .

وقال ﷺ : « يا عائشة ، إن شِرار الناس الذين يُكرَمون اتقاءَ شرِّهم »[(٦)] .

« قال يحيى بن معاذ : في سَعة الأخلاق كُنوزُ الأرزاق .

وقال رحمه الله : سُوءُ الخلُق سيِّئة لا تَنفع معها كثرة الحسنات ، وحُسْن الخلُق حسنة لا تضرُّ معها كثرة السيئات .

وقال الجنيد : أربع ترفَعُ العبد إلى أعلى الدرجات وإن قلَّ عمله وعِلْمُه : الحِلْم والتواضع والسخاء وحسْن الخلُق ، وهو كمال الإيمان .

وقال الفضيل : لَأنْ يصاحِبَنى فاجرٌ حَسَنُ الخلُق أحبُّ إليَّ من أن يصحبَني عابد سيءُ الخلُق »[(٧)] .

---

(١) رواه الترمذي عن أبي الدرداء ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٦٠٢ .

(٢) رواه الحاكم في المستدرك ، والبيهقي في السنن عن أبي هريرة ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٣٦٠ .

(٣) أي : الذلول المنقاد .

(٤) أي : إذا مال به صاحبه علي صخرة ، انقاد له .

(٥) رواه ابن المبارك عن مكحول مرسلًا ، والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٥٤٥ .

(٦) رواه أبو داود عن عائشة ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٧٨٠٠ .

(٧) إحياء علوم الدين ٣/٥٧ .

قال الحسن : حسْن الخلُق : بسطُ الوجه ، وبذْلُ الندىٰ ، وكفُّ الأذىٰ .

وقال أبو عثمان : هو الرضا عن الله تعالى .

وقال سهل التستري : أدْناه : الاحتمال ، وترْك المكافأة ، والرحمة للظالم والاستغفار له والشفقة عليه .

وقال : أن لا يتهم الحقَّ في الرزق ، ويثق به ويسكن إلى الوفاء بما ضمِن ، فيطيعه ولا يعصيه في جميع الأمور فيما بينه وبينه ، وفيما بينه وبين الناس .

وقيل : حُسْن الخُلق : بذل الجميل وكفُّ القبيح .

وقيل : التخلِّي من الرذائل ، والتحلي بالفضائل .

أمَّهاتُ محَاسِنِ الأخلاقِ وأركانُ حُسْن الخُلق عند ابن القيّم :

قال ابن القيم في « المدارج » (٣٠٨/٢ - ٣١١):وحسن الخلُق يقوم على أربعة أركان ، لا يُتَصوَّر قيام ساقه إلّا عليها : الصبر ، والعفَّة ، والشجاعة ، والعدْل .

فالصبر : يحمله على الاحتمال وكظْم الغيظ ، وكفِّ الأذىٰ ، والحلْم والأناة والرفْق ، وعدم الطيش والعجلة .

والعِفَّة : تحمله على اجتناب الرذائل والقبائح من القول والفعل . وتحمله على الحياء وهو رأس كلّ خير . وتمنعه من الفحشاء ، والبخل ، والكذب ، والغيبة والنميمة .

والشجاعة : تحمله على عزَّة النفس ، وإيثار معالي الأخلاق والشِّيم ، وعلى البذْلِ والندىٰ ، الذي هو شجاعة النفس وقوَّتها على إخراج المحبوب ومفارقته . وتحمِله على كظْم الغيْظ والحلْم ؛ فإنه بقوة نفسه وشجاعتها يُمسك

عنانها ، ويكبحها بلجامها عن النزغ والبطْش ؛ كما قال النبي ﷺ : « ليس الشديدُ بالصُّرَعَة ، إنما الشديد : الذي يملك نفسه عند الغضب » . وهو حقيقة الشجاعة ، وهي ملَكة يقْتَدِرُ بها العبد على قهر خَصْمه .

والعدلُ : يحمله على اعتدال أخلاقه ، وتوسُّطه فيها بين طرفي الإفراط والتفريط ، فيحمله على خلُق الجود والسخاء الذي هو توسُّطٌ بين الذلّ والقِحَةِ . وعلى خلق الشجاعة ، الذي هو توسُّط بين الجبن والتهوُّر . وعلى خلُق الحلْم ، الذي هو توسُّط بين الغضَب والمهانة وسقوط النفس .

ومنشأ جميع الأخلاق الفاضلة من هذه الأربعة .

ومنشأ جميع الأخلاق السافلة وبناؤها على أربعة أركان : الجهل ، والظلم ، والشهوة ، والغضب .

فالجهل : يُريه الحسَن في صورة القبيح ، والقبيحَ في صورة الحسن ، والكمالَ نقصًا،والنقصَ كمالًا .

والظلم : يحمِله على وضْع الشيءِ في غير موضعه ؛ فيغضب في موضع الرضا ، ويرضى في موضع الغضب ، ويجهل في موضع الأَناة ، ويبخل في موضع البذْل ، ويبذُل في موضع البخْل ، ويُحجم في موضع الإقدام ، ويُقدِم في موضع الإحجام ، ويَلين في موضع الشِّدَّة ، ويشتدُّ في موضع اللِّين ، ويتواضع في موضع العِزَّة ، ويتكبَّر في موضع التواضع .

والشهوة : تحمله على الحِرْص والشحِّ والبخل ، وعدم العفَّة والنَّهمة والجَشَع ، والذلِّ،والدناءات كلِّها .

والغضب : يحمله على الكِبْر والحِقْد والحَسَد ، والعدوان والسَّفَه .

ويتركب من بين كل خُلُقيْن من هذه الأخلاق : أخلاقٌ مذمومة .

وملاك هذه الأربعة أصلان : إفراط النفس في الضعْف ، وإفراطها في

القوة ؛ فيتولَّد من إفراطها في الضعف : المهانة والبخل ، والخِسَّة واللُّؤْم ، والذلُّ والحرص ، والشحّ،وسَفْساف الأمور والأخلاق .

ويتولَّد من إفراطها في القوة : الظلم ، والغضب ، والحِدَّة ، والفحْش ، والطيْش .

ويتولَّد مِن تزوُّج أحدِ الخلُقَيْن بالآخر : أولاد غيَّة كثيرون ؛ فإن النفس قد تجمع قوَّة وضعفًا ، فيكون صاحبها أجْبَرَ الناس إذا قَدَر ، وأذلَّهم إذا قُهِر . ظالم عنوف جبار ؛ فإذا قُهِر صار أذلَّ من امرأة . جبانٌ عن القوي ، جريء على الضعيف .

فالأخلاق الذميمة : يولِّد بعضُها بعضًا ، كما أن الأخلاق الحميدة : يولِّد بعضها بعضًا وكلّ خلُق محمود مُكْتَنَفٌ بخُلُقَيْن ذميمَيْن ، وهو وسط بينهما ، وطرفاه خلقان ذميمان ؛ كالجود : الذي يكتنفه خُلُقَا البخلِ والتبذير . والتواضُع : الذي يكتنفه خلُقا : الذلّ والمهانة ، والكبر والعلو .

فإن النفس متى انحرفتْ عن « التوسُّط » ، انحرفتْ إلى أحد الخلُقَين الذميميْن ولا بدَّ ؛ فإذا انحرفتْ عن خلُق « التواضع » ، انحرفتْ : إمَّا إلى كبْرٍ وعُلُّو ، وإما إلى ذلٍّ ومهانة وحقارة . وإذا انحرفت عن خلُق « الحياء » ، انحرفت : إما إلى قِحَة وجرأة ، وإما إلى عجْزٍ وخَوَر ومهانة ، بحيث يُطمِع في نفسه عدوه ، ويفوته كثير من مصالحه ، ويزعم أن الحامِل له على ذلك الحياء ، وإنما هو المهانة والعجْز ، وموْت النفس .

وكذلك إذا انحرفتْ عن خلُق « الصبر المحمود » ، انحرفتْ : إما إلى جزع وهلَع وجشَع وتسخُّط ، وإما إلى غلْظَةِ كَبِدٍ ، وقسوة قلبٍ ، وتحجر طبْع . كما قال بعضهم :

تبكي علينا ولا نبكي على أحدٍ فنحنُ أغلظُ أكبادًا من الإبلِ

وإذا انحرفت عن خلُق « الحلم » ، انحرفت : إمَّا إلى الطيش والترَف

والحِدَّة والخفَّة ، وإما إلى الذلّ والمهانة والحقارة . ففرقٌ بين مَن حلْمُه حلْمُ ذلٍّ ومهانة وحقارة وعجز ، وبين من حلمه حلْم اقتدار وعزَّة وشَرف . كما قيل :

كـلُّ حلـمٍ أتـىٰ بغيْـرِ اقتـدارٍ حجَّـةٌ لاجـيءٌ إليهـا اللئـامُ

وإذا انحرفتْ عن خلُق « الأَنَاة والرفق » ، انحرفت : إما إلى عجَلَة وطيْش وعُنْف ، وإما إلى تفريط وإضاعة . والرفق والأناة بينهما .

وإذا انحرفتْ عن خلُق « العزة » التي وهبَها الله للمؤمنين ، انحرفت : إما إلى كبْر ، وإما إلى ذلٍّ . والعزة المحمودة بينهما .

وإذا انحرفتْ عن خلق « الشجاعة » ، انحرفتْ : إما إلى تهوُّر وإقدامٍ غير محمود ، وإما إلى جبْن وتأخُّر مذموم .

وإذا انحرفت عن خلُق « المنافسة في المراتب العالية والغِبْطة » ، انحرفتْ : إما إلى حسَد ، وإمّا إلى مهانة وعجزٍ وذلٍّ ، ورضًا بالدُّون .

وإذا انحرفتْ عن « القناعة » ، انحرفت : إما إلى حرص وكَلَبٍ ، وإما إلى خِسَّة ومهانة وإضاعة .

وإذا انحرفتْ عن خلق « الرحمة » ، انحرفت : إما إلى قسوة ، وإما إلى ضعف قلب وجبْن نفسٍ ؛ كمن لا يقدم على ذبْح شاة ، ولا إقامة حدٍّ ، وتأديبِ ولد ، ويزعم أنَّ الرحمة تحمله على ذلك ، وقد ذبح أرحمُ الخلْقِ ﷺ بيدِه في موضعٍ واحدٍ ثلاثًا وستين بَدَنة ، وقطع الأيدي من الرجال والنساء ، وضرب الأعناق ، وأقام الحدود ، ورجم بالحجارة حتى مات المرجوم . وكان أرحم خلق الله على الإطلاق وأرأفهم .

وكذلك طلاقَة الوجْه ، والبِشْر المحمود ؛ فإنه وسَطٌ بين التعبيس والتقطيب وتصعير الخدِّ ، وطي البشْر عن البَشَر ، وبين الاسترسال بذلك مع كل أحد ، بحيث يُذهب الهيْبة ، ويُزيل الوقار ، ويطمع في الجانب ، كما

أن الانحراف الأول يوقع الوَحْشة والبغضة والنفْرة في قلوب الخلْق .

وصاحب الخلُق الوسَط : مهيبٌ محبوب ، عزيزٌ جانبُه ، حبيب لقاؤه . وفي صفة نبينا ﷺ : « من رآه بديهةً هابَه ، ومن خالطه عِشْرةً أحبَّه » . والله أعلم .

أركانُ حُسْنِ الخلُقِ ثلاثةٌ عندَ الهروي :

قال الهروي : « جميعُ الكلام فيه يدور على قطْبٍ واحد ، وهو بذْلُ المعروف ، وكفُّ الأذىٰ . وإنما يُدرَك إمكان ذلك في ثلاثة أشياء :

في العلم ، والجُود ، والصبر »[(١)] .

فأركان حسْنِ الخلُق عند شيْخ الإسلام الهروي ثلاثة :

١ - العلم . ٢- الجود . ٣- الصبرِ .

قال ابن القيم : « فـ « العلم » يُرشده إلى مواقع بذْل المعروف ، والفرقِ بينه وبين المنكر ، وترتيبه في وضعه مواضعه ؛ فلا يضع الغضب موضع الحلم ، ولا بالعكس ، ولا الإمساك موضع البذل ، ولا بالعكس ، بل يعرف مواقع الخير والشرِّ ومراتبها ، وموضع كلِّ خلُق : أين يضعه ، وأين يحسن استعماله .

و« الجود » يبعثه على المسامحة بحقوق نفسه ، والاستقصاء منها بحقوق غيره . فالجود هو قائد جيوش الخير .

و« الصبر » يحفظ عليه استدامة ذلك ، ويحمله على الاحتمال ، وكظم الغيظ ، وكف الأذى ، وعدم المقابلة . وعلى كلِّ خير ، كما تقدم . وهو أكبر العون على نيْل كل مطلوب من خير الدنيا والآخرة . قال الله تعالى : ﴿ **واستعينوا بالصبرِ والصلاةِ وإنها لَكَبيرةٌ إلّا على الخاشعين** ﴾ [البقرة : ٤٥] .

---

(١) مدارج السالكين ٢/٣١٦ - ٣١٧ .

فهذه الثلاثة أشياء : بها يدرَك التصوفُ ، والتصوُّف : زاوية من زوايا السلوك الحقيقي ، وتزكية النفس وتهذيبها ، لتستعدَّ لسيْرها إلى صحبة الرفيق الأعلى ، ومعيَّة مَن تحبُّه ؛ فإن المرء مع مَن أحبَّ . كما قال سمنون : ذهب المحبُّون بشرف الدنيا والآخرة ؛ فإن المرء مع من أحب . والله أعلم »[1] .

أمهاتُ محاسِنِ الأخلاقِ وأركانُ حُسْنِ الخُلُق عند الغزالي أربعة :

ذهب الغزالي إلى أنّ حُسْن الخُلُق عبارة عن هيئة في النفس راسخة ، عنها تصدر الأفعال الجميلة المحمودة شرعًا وعقلًا ، بسهولة ويُسْر من غير حاجة إلى فكر ورويَّة . فهاهنا أربعة أمور :

أحدها : فعْل الجميل .

والثاني : القدرة عليه .

والثالث : المعرفة به .

الرابع : هيئة للنفس ، بها تميل إلى الحسن ويتيسر عليها .

وليس الخلُق عبارة عن الفعل ، فربَّ شخصٍ خلُقه السخاء ولا يبذل ؛ إمَّا لفقد المال أو لمانع ، وربما يكون خلُقه البخل وهو يبذل ؛ إما لباعث أو لرياء .

وليس هو عبارة عن القوة ؛ لأن نسبة القوة إلى الإمساك والإعطاء واحد ، وكل إنسان خُلِق بالفطرة قادرًا على الإعطاء والإمساك .

وليس هو عبارة عن المعرفة ؛ فإن المعرفة تتعلَّق بالجميل والقبيح جميعًا على وجه واحدٍ ، بل هو عبارة عن المعنى الرابع ، فالخُلُق إذن عبارة عن هيئة النفس وصورتها الباطنة .

يقول الغزالي رحمه الله : « في الباطن أربعة أركان لا بدّ من الحسن في

(١) مدارج السالكين ٢/٣١٧ .

جميعها ، حتى يتمَّ حسن الخُلُق ، فإذا استوتِ الأركان الأربعة واعتدلتْ وتناسبتْ ، حصل حُسْن الخلق ؛ وهي :

١ - قوة العلم . ٢ - وقوة الغضب . ٣ - وقوة الشهوة .

٤ - وقوة العدْل بين هذه القوى الثلاث .

أمَّا قَوَّةُ العلم : فحسنها وصلاحها في أن تصير بحيث يَسهُل بها درْك الفرْق بين الصدق والكَذِب في الأقوال ، وبين الحقِّ والباطل في الاعتقادات ، وبين الجميل والقبيح في الأفعال ، فإذا صلحت هذه القوة حصل منها ثمرة الحِكْمَة ، والحكمة رأس الأخلاق الحَسَنة ، وهي التي قال الله فيها : ﴿ **ومَن يُؤْتَ الحكمةَ فقد أوتي خيرًا كثيرًا** ... ﴾ الآية [البقرة : ٢٦٩] »[(١)] .

قال أبو الدرداء رضي الله عنه : « إن مِن فقه الرجل أن يعلم نزغَات الشيطان ؛ متى تأتيه ؟ ومن أين تأتيه ؟ » .

وقال الحسن البصري رحمه الله : « لا يزال العبد بخير ما علم الذي يُفسِد عليه عمله »[(٢)] .

وقال أبو الفرج ابن الجوزي رحمه الله : « اعلم أن الباب الأعظم الذي يدخل منه إبليس على الناس هو الجهل ، فهو يدخل منه على الجُهَّال بأمان ، وأمَّا العالم فلا يدخل عليه إلّا مسارَقَة ، وقد لبّس إبليس على كثير من المتعبِّدين بقلّة علْمهم ؛ لأن جمهورهم يشتغل بالتعبُّد ، ولم يحكِّم العلم »[(٣)] .

قال الغزالي : « **وأمَّا قوة الغضب** : فحُسْنُها في أن يصير انقباضها وانبساطها على حدٍّ ما تقتضيه الحكمة . **وكذلك الشهوة** ؛ حُسْنها وصلاحها في أن تكون تحت إشارة الحكمة ؛ أعني إشارة العقل والشرع .

---

(١) إحياء علوم الدين ٣/٥٨ .

(٢) الزهد لابن المبارك ص ٥٢٨ ، والزهد لأحمد ص٢٧٨ .

(٣) تلبيس إبليس ص ١٤٩ .

وأمَّا قوة العدل : فهو ضبْط الشهوة والغضب تحت إشارة العقل والشرع .

فمن استوتْ فيه هذه الخصال واعتدلتْ ، فهو حسَنُ الخلُق مطلقًا ، ومن اعتدل فيه بعضُها دون البعض ، فهو حسَنُ الخلُق بالإضافة إلى ذلك المعنى خاصَّة ، كالذي يحسن بعض أجزاء وجهه دون بعض .

وحُسْن القوة الغضبية واعتدالها يُعبّر عنه بالشجاعة . وحُسْنُ قوة الشهوة واعتدالها يعبّر عنه بالعفّة .

فإن مالت قوة الغضب عن الاعتدال إلى طرَف الزيادة ، تُسمَّى تهوُّرًا . وإن مالت إلى الضعف والنقصان ، تسمَّى جُبْنًا وخوَرًا . وإن مالت قوة الشهوة إلى طرَف الزيادة تسمَّى شَرَهًا . وإن مالت إلى النقصان تسمَّى جمودًا .

والمحمود هو الوسَط وهو الفضيلة ، والطرفان رذيلتان مذمومتان ، والعدل إذا فات فليس فيه طرفَا زيادةٍ ونقصان ، بل له ضدٌّ واحد ومقابل ، وهو الجوْر .

وأمَّا الحكمة فيسمَّى إفراطها عند الاستعمال في الأغراض الفاسدة : خبْثًا وجربزة ، ويسمَّى تفريطها بَلَهًا ، والوسَطُ هو الذي يختصُّ باسم الحكمة .

فإذن ، أُمَّهاتُ الأخلاق وأصولها أربعة :

١ - الحكمة . ٢ - الشجاعة . ٣ - العفَّة . ٤ - العدل .

فمِنَ اعتدال هذه الأصول الأربعة تصدر الأخلاق الجميلة كلُّها .

إذ من **اعتدال قوة العقل** : يحصل حسن التدبير وجودة الذهن ، وثَقَابة الرأي وإصابة الظنِّ ، والتفطُّن لدقائق الأعمال وخفايا آفات النفوس .

ومن إفراطها : تصدر الجربزة والمكر والخداع والدهاء .

ومن تفريطها : يصدر البلَهُ والغمارة والحمق والجنون .

وأمَّا خلق الشجاعة : فيصدر منه الكرم ، والنجدة ، والشهامة ، وكسْرُ النفس ، والاحتمال ، والحلم ، والثبات ، وكظم الغيظ ، والوقار ، والتودُّد ... وأمثالها ، وهي أخلاق محمودة .

وأما إفراطها ، وهو التهوُّر : فيصدر منه الصَّلَفُ والبذخ والاستشاطة والتكبُّر والعجْب .

وأمَّا تفريطها : فيصدر منه المهانة والذلَّة والجزَع ، والخساسة وصغر النفس ، والانقباض عن تناوُل الحقِّ الواجب .

وأما خلُق العِفَّة : فيصدر منه السخاء والحياء والصبر والمسامحة والقناعة ، والورَع واللَّطَافة والمساعدة والظَّرْف وقلّة الطمع .

وأمَّا ميلها إلى الإفراط أو التفريط : فيحصُل منه الحرص والشَّره ، والوقاحة والخبث ، والتبذير والتقتير ، والرياء والهتكة ، والمجانة والعبَث ، والملَق والحسد ، والشماتة ، والتذلُّل للأغنياء ، واستحقار الفقراء وغير ذلك .

فأمهات محاسن الأخلاق هذه الفضائل الأربعة ؛ وهي : الحكمة ، والشجاعة ، والعفة ، والعدل . والباقي فروعها »[1] .

كمالُ الاعتدالِ في هذه الأربع لرسول الله ﷺ :

قال الغزالي : « ولم يبلغْ كمالَ الاعتدال في هذه الأربع إلَّا رسولُ الله ﷺ ، والناس بعده متفاوتون في القرْب والبعد منه . فكلُّ من قرب منه في هذه الأخلاق ، فهو قريب من الله تعالى بقدْر قرْبه من رسول الله ﷺ ، وكلّ من جمع كمال هذه الأخلاق استحقَّ أن يكون بيْن الخلْق مِلكًا مطاعًا ، يرجع الخلق كلُّهم إليه ويقتدون به في جميع الأفعال . ومَنِ انفكَّ عن هذه الأخلاق كلها واتصف بأضدادها ؛ استحقَّ أن يخرج من بين البلاد والعباد ؛ فإنه قد قرُب من الشيطان اللَّعِين المُبْعَد .

وقد أشار القرآن إلى هذه الأخلاق في أوصاف المؤمنين ، فقال تعالى :

(١) إحياء علوم الدين ٣/ ٥٧ - ٥٩ .

﴿ **إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسولِه ثمَّ لمْ يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك همُ الصادقون** ﴾ [الحجرات : ١٥] . فالإيمان بالله وبرسوله من غير ارتياب هو قوة اليقين ، وهو ثمرة العقل ، ومنتهى الحكمة . والمجاهدة بالمال هو السخاء الذي يرجع إلى ضبط قوة الشهوة ، والمجاهدة بالنفس هي الشجاعة التي ترجع إلى استعمال قوة الغضب ، على شرط العقل وحدِّ الاعتدال ؛ فقد وصف الله تعالى الصحابة فقال : ﴿ **أشدَّاء على الكفَّارِ رُحَمَاءُ بينهم** ﴾ [الفتح : ٢٩] ، إشارة إلى أنَّ للشِّدَّة موضعًا ، وللرحمة موضعًا ، فليس الكمال في الشدَّة بكل حال ، ولا في الرحمة بكل حال ، فهذا بيان معنى الخلُق وحُسْنه وقُبحه ، وبيان أركانه وثمراته وفروعه »[1] .

الخُلُق يمكنُ اكتسابُه :

قال ابن القيم في « المدارج » : « فإن قلتَ : هل يمكن أن يقع الخُلُق كسبيًّا ، أو هو أمر خارج عن الكسب ؟

قلت : يمكن أن يقع كسبيًّا بالتخلُّق والتكلُّف ، حتى يصير له سَجية وملَكة ؛ وقد قال النبي ﷺ لأشجّ عبد القيس رضي الله عنه : « إن فيك لخُلُقيْن يحبُّهما الله : الحلم ، والأناة » . فقال : أخلُقين تخلَّقْتُ بهما ، أم جَبَلني الله عليهما ؟ فقال : « بل جبَلك الله عليهما » . فقال : الحمد لله الذي جبَلني على خُلُقيْنِ يحبُّهما الله ورسوله . متفق عليه .

قد دلَّ على أن من الخلُق : ما هو طبيعة وجِبِلَّة ، وما هو مكتسب . وكان النبي ﷺ يقول في دعاء الاستفتاح : « اللهمَّ اهدني لأحسنِ الأخلاق ، لا يهدي لأحسنها إلا أنت ، واصرفْ عنِّي سيِّئها ، لا يصرف عني سيئها إلا أنت » . فذكر الكسْب والقَدَر . والله أعلم »[2] .

---

(١) إحياء علوم الدين ٣/٦٠ .

(٢) مدارج السالكين ٢/٣١٥

قال الغزالي رحمه الله في بيان السبب الذي به يُنال حُسْن الخلق :

« **أحدهما** : جُودٌ إلٰهي وكمال فِطْري ، بحيث يُخلق الإنسانُ ويُولد كامل العقل حسَن الخلُق ، قد كُفي سلطانَ الشهوة والغضب ، فيصير مؤدَّبًا بغير تأديب .

والثاني : اكتساب هذه الأخلاق بالمجاهدة والرياضة وحمْل النفس على الأعمال التي يقتضيها الخلُق المطلوب »(١) .

فالأخلاق الجميلة يمكن اكتسابها بالرياضة ، وهي تكلّف الأفعال الصادرة عنها ابتداءً ، لتصير طبعًا انتهاء ؛ قال رسول الله ﷺ : « إنما العلم بالتعلُّم ، وإنما الحلْمُ بالتحلُّم ، ومَن يتحرَّ الخير يُعطَه ، ومَن يتق الشرَّ يُوَقَّه »(٢) .

وطالب تزكية النفس وتكميلها وتحليتها بالأعمال الحسَنة لا يَنالها بعبادة يوم ، ولا يُحرم عنها بعصيان يوم .

والثالث :بمشاهدة أرباب الأفعال الجميلة ومصاحبتهم ، وهم قرناء الخير وإخوان الصلاح ، إذِ الطبع يسرق من الطبْع . الشرَّ والخير جميعًا ، فمَن تظاهرت في حقِّه الجهات الثلاث ، حتى صار ذا فضيلة طبعًا واعتيادًا وتعلُّمًا ، فهو في غاية الفضيلة . ومن كان رَذِلًا بالطبع واتفق له قرناءُ السُّوء فتعلّم منهم ، وتيسَّرت له أسباب الشرِّ حتى اعتادها ؛ فهو في غاية البعد من الله عز وجل ، وبين الرتبتين من اختلفت فيه من هذه الجهات ، ولكلٍّ درجة في القرْب والبعد بحسَب ما تقتضيه صورته وحالته .

---

(١) إحياء علوم الدين ٣/ ٦٣ - ٦٤ .

(٢) حسن : أخرجه الدارقطني في الأفراد ، والخطيب في تاريخه عن أبي هريرة ، والخطيب في تاريخه عن أبي الدرداء ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٣٢٤

نفائسُ ولطائفُ من كُنوزِ البرِّ والمعرفة مِنْ طبيبِ القلوبِ وحاديها ابنِ القيِّم :

قال رحمه الله في « مدارج السالكين » (٢/٣١١ - ٣١٥) :

فصـل :

نافع جدًّا ، عظيم النفع للسالك ، يوصله عن قريب ، ويسيِّره بأخلاقه التي لا يمكنه إزالتها ؛ فإن أصعب ما على الطبيعة الإنسانية : تغيير الأخلاق التي طُبعت النفوس عليها ، وأصحاب الرياضات الصعبة والمجاهدات الشاقَّة إنما عمِلوا عليها ، ولم يظفر أكثرهم بتبديلها . لكن النفس اشتغلت بتلك الرياضات عن ظهور سلطانها ، فإذا جاء سلطان تلك الأخلاق وبرز ؛ كسر جيوش الرياضة وشتَّتها ، واستولى على مملكة الطبع .

وهذا فصل يصل به السالك مع تلك الأخلاق ، ولا يحتاج إلى علاجها وإزالتها ، ويكون سيْره أقوى وأجلّ وأسرع من سير العامِل على إزالتها .

ونقدِّم قبل هذا مثلًا نضربه ، مطابقًا لما نريده ، وهو : نهرٌ جارٍ في صَبَبِه ومُنْحَدَرِه ، وَمُنْتَهٍ إلى تغريق أرض وعمرانٍ ودُورٍ ، وأصحابها يعلمون أنه لا ينتهي حتى يُخَرِّبَ دُورهم ، ويُتلف أراضيهم وأموالهم ، فانقسموا ثلاثَ فرق :

فرقة صرفت قواها وقوى أعمالها إلى سَكْره وحَبْسه وإيقافه ، فلا تصنع هذه الفرقة كبير أمْر ؛ فإنه يُوشك أن يجتمع ثم يَحْمِل على السكْر ، فيكون إفساده وتخريبه أعظم .

وفرقة رأتْ هذه الحالة ، وعلمت أنه لا يغني عنها شيئًا ، فقالت : لا خلاص من محذوره إلا بقطْعه من أصل الينبوع ، فرامت قطْعَه من أصله ، فتعذّر عليها ذلك غاية التعذُّر ، وأبتِ الطبيعة النهرية عليهم ذلك أشدَّ الإباء ، فهم دائمًا في قطع الينبوع ، وكلَّما سدُّوه من موضع نَبعَ من موضع ، فاشتغل هؤلاء بشأن هذا النهر عن الزراعات والعمارات وغرْس الأشجار .

فجاءت فرقة ثالثة ، خالفت رأي الفرقتيْن ، وعلموا أنهم قد ضاع عليهم كثير من مصالحهم ، فأخذوا في صرف ذلك النهر عن مجراه المنتهي إلى العمران ، فصرفوه إلى موضع ينتفعون بوصوله إليه ، ولا يتضرَّرون به ، فصرفوه إلى أرض قابلة للنبات ، وسقوها به ، فأنبتتْ أنواع العشب والكلأ والثمار المختلفة الأصناف ، فكانت هذه الفرقة همْ أصوبَ الفِرق في شأن هذا النهر .

فإذا تبيَّن هذا المثل ، فالله سبحانه قد اقتضتْ حكمتُه : أن ركَّب الإنسان - بل وسائر الحيوان - على طبيعة محمولةٍ على قوَّتيْن : غضبية ، وشهوانية ، وهي الإرادية ، وهاتان القوَّتان هما الحاملتان لأخلاق النفس وصفاتها ، وهما مركوزتان في جِبِلَّة كل حيوان ؛ فبقوَّة الشهوة والإرادة : يجذِب المنافع إلى نفسه ، وبقوة الغضب : يدفع المضارَّ عنها . فإذا استعمل الشهوة في طلب ما يحتاج إليه ؛ تولَّد منها الحرص . وإذا استعمل الغضب في دفع المضـرَّة عن نفسه ؛ تولَّد منه القوة والغيْرة . فإذا عجز عن ذلك الضارِّ ؛ أورثه قوَّة الحقد . وإن أعجزه وصول ما يحتاج إليه ، ورأى غيره مستبدًّا به ؛ أورثه الحسد . فإن ظفر به ؛ أورثْه شدَّة شهوته وإرادته خلُق البخل والشحِّ ، وإن اشتدَّ حرصُه وشهوتُه على الشيء ، ولم يمكنه تحصيله إلّا بالقوة الغضبية ، فاستعملها فيه ؛ أورثه ذلك العدوان والبغي والظلم ، ومنه يتولَّد الكبر والفخر والخيلاء ؛ فإنها أخلاق متولِّدة من بين قوَّتَي الشهوة والغضب ، وتزوّج أحدهما بصاحبه .

فإذا تبيَّن هذا ؛ فالنهر مثال هاتيْن القوتين ، وهو منصبٌّ في جدول الطبيعة ومجراها إلى دُور القلب وعمرانه وحواصله ، يخربها ويُتلفها ولا بدّ ؛ فالنفوس الجاهلة الظالمة تركتْه ومجراه ، فخرَّب ديار الإيمان ، وقلع آثاره ، وهدم عمرانه ، وأنبت موضعها كلَّ شجرة خبيثة ، من حَنْظل وضَريع وشوك

وزَقُّوم ، وهو الذي يأكله أهل النار يوم القيامة يوم المعاد .

وأما النفوس الزكيَّة الفاضلة : فإنَّها رأتْ ما يؤول إليه أمر هذا النهر ، فافترقوا ثلاث فرق :

فأصحاب الرياضات والمجاهدات ، والخَلَوات والتمرينات : راموا قطْعَه من ينبوعه ، فأبتْ عليهم ذلك حكمةُ الله تعالى ، وما طَبَع عليه الجِبِلَّة البشرية ، ولم تَنْقَدْ له الطبيعة ، فاشتدَّ القتال ، ودام الحرب ، وحميَ الوطيس ، وصارت الحرب دُوَلًا وسِجالًا . وهؤلاء صرفوا قواهم إلى مجاهدة النفس على إزالة تلك الصفات .

وفرقة أعرضوا عنها ، وشغلوا نفوسهم بالأعمال ، ولم يُجيبوا دواعي تلك الصفات مع تخليتهم إيّاها على مجراها ، لكن لم يمكّنوا نهرها من إفساد عمرانهم ، بل اشتغلوا بتحصين العمران ، وإحكام بنائه وأساسه ، ورأوا أن ذلك النهر لا بد أن يصل إليه ؛ فإذا وصل وصل إلى بناء محكم فلم يهدمْه ، بل أخذ عنه يمينًا وشمالًا . فهؤلاء صرفوا قوَّة عزيمتهم وإرادتهم في العمارة ، وإحكام البناء . وأولئك صرفوها في قطْع المادة الفاسدة مِن أصلها ، خوْفًا من هدْم البناء .

وسألتُ يومًا شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - عن هذه المسألة ، وقطْعِ الآفات ، والاشتغال بتنقية الطريق وبتنظيفها ؛ فقال لي جملة كلامه : النفسُ مثل الباطوس - وهو جُبّ القذَر - كلَّما نبشتَه ظهر وخرج ، ولكن إن أمكنك أن تسقف عليه وتعبُره وتجُوزه ، فافعلْ ، ولا تشتغلْ بنبشِه ؛ فإنك لن تصل إلى قراره ، وكلما نبشتَ شيئًا ظهَر غيره .

فقلتُ : سألتُ عن هذه المسألة بعض الشيوخ ، فقال لي : مثال آفات النفس مثال الحيَّات والعقارب التي في طريق المسافر ؛ فإن أقبل على تفتيش

الطريق عنها ، والاشتغال بقتلها ؛ انقطَع ، ولم يمكنه السفر قطُّ ، ولكن لتكنْ همتك المسير ، والإعراض عنها ، وعدم الالتفات إليها ، فإذا عرض لك فيها ما يعوقك عن المسير فاقتله ، ثم امضِ على سيْرك . فاستحسَنَ شيخ الإسلام ذلك جدًّا ، وأثنى علىٰ قائله .

إذا تبيَّن هذا ، فهذه الفرقة الثالثة : رأتْ أن هذه الصفات ما خُلقت سُدًى ولا عبثًا ، وأنها بمنزلة ماءٍ يُسْقى به الورد والشوك والثمار والحطَب ، وأنها صِوان وأصداف لجواهر منطوية عليها ، وأن ما خاف منه أولئك هو نفْسُ سبب الفلاح والظفر ، فرأوا أن الكِبْر نهْرٌ يُسقىٰ به العلوُّ والفخر ، والبطرُ والظلم والعدوان ، ويسقىٰ به علو الهمة ، والأَنَفَة ، والحميَّة ، والمراغمة لأعداء الله ، وقهْرهم والعلوّ عليهم ، وهذه درَّة في صدفته . فصرفوا مجراه إلى هذا الغراس ، واستخرجوا هذه الدرَّة من صدفته ، وأبقوه على حاله في نفوسهم ، لكن استعملوه حيث يكون استعماله أنفع ، وقد رأى النبي ﷺ أبا دُجانة يتبختر بين الصفَّين ، فقال : « إنها لَمِشْية يُبغضها الله ، إلَّا في مثل هذا الموضع » .

فانظر كيف خلَّى مجرى هذه الصفة وهذا الخلُق يجري في أحسن مواضعه .

وفي الحديث الآخر - وأظنه في المسند - : « إن من الخيلاء ما يحبُّها الله ، ومنها ما يُبغضها الله ، فالخيلاء التي يحبُّها الله : اختيالُ الرجل في الحرب ، وعند الصَّدَقَة » .

فانظرْ كيف صارتِ الصفة المذمومة عبودية ؟ وكيف استحال القاطع مُوصِلًا ؟

فصاحب الرياضات ، والعامل بطريق الرياضات والمجاهدات ، والخلوات :

هيهاتَ هيهاتَ ، أنْ يوقعه ذلك في الآفات ، والشبهات ، والضلالات ؛ فإن تزكية النفوس مُسَلّم إلى الرسل ، وإنما بعثهم الله لهذه التزكية ، وولّاهم إيّاها وجعلها على أيديهم دعوة وتعليمًا ، وبيانًا وإرشادًا ، لا خلقًا ولا إلهامًا » .

درجات حُسْن الخلُق ومراتبه :

١ - تحسين الخلُق مع الخَلْق .

٢ - تحسين الخلُق مع الحقِّ عز وجل .

٣ - تصفية الخلق ، ثم الصعود عن تفرقة التخلُّق ، ثم التخلُّق بمجاوزة الأخلاق .

قال الهروي : « وهو على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : أن تعرفَ مقامَ الخَلْق :

وأنهم بأقدارهم مربوطون ، وفي طاقتهم محبوسون ، وعلى الحكم مَوْقوفون ، فتستفيد بهذه المعرفة ثلاثة أشياء : أمْن الخلْق منك ، حتى الكلب . ومحبّة الخلق إياك . ونجاة الخلْق بك »[1] .

قال ابن القيم : « فبهذه الدرجة : يكون تحسين الخُلُق مع الخلق في معاملتهم ، وكيفية مصاحبتهم .

يقول : إذا عرفتَ مقام الخلق ومقاديرهم ، وجريان الأحكام القدرية عليهم ، وأنهم مقيَّدون بالقدر ، لا خروج لهم عنه ألبتة ، ومحبوسون في قدرتهم وطاقتهم ، لا يمكنهم تجاوزها إلى غيرها ، وأنهم موقوفون على الحكم الكوني القدَري لا يتعدّونه - استفدتَ بهذه المعرفة ثلاثة أشياء :

أمْن الخلق منك : وذلك أنه إذا نظر إليهم بعيْن الحقيقة ؛ لم يطالبهم بما

---

(١) مدارج السالكين ٢/٣١٧ .

لا يقدرون عليه ، وامتثل فيهم أمرَ الله تعالى لنبيه ﷺ بأخذ العفو منهم ، فأمِنُوا من تكليفه إياهم ، وإلزامه لهم ما ليس في قواهم وقدرهم .

وأيضًا فإنهم يأمنون لائمتَه ؛ فإنه في هذه الحال عاذِر لهم فيما يجري عليهم من الأحكام ، فيما لم يأمر الشرع بإقامته فيهم ؛ لأنهم إذا كانوا محبوسين في طاقتهم فينبغي مطالبتهم بما يطالب به المحبوس ، وعذْرهم بما يعذر به المحبوس ، وإذا بدا منهم في حقِّك تقصيرٌ أو إساءة ، أو تفريط ؛ فلا تقابلهم به ولا تخاصمهم ، بل اغفرْ لهم ذلك واعذرهم ؛ نظرًا إلى جريان الأحكام عليهم ، وأنهم آلة . وهاهنا ينفعك الفناء بشهود الحقيقة عن شهود جنايتهم عليك ، كما قال بعض العارفين لرجل تعدَّى عليه وظلمه : إنْ كنتَ ظالمًا فالذي سلَّطك عليَّ ليس بظالم »[١] .

مشاهِدُ العبد فيما يُصيبه مِن أذى الخلْقِ ، وتفاوُتُ الناسِ في ذلك :

قال ابن القيم : « للعبد أحدَ عشر مشهدًا فيما يصيبه من أذى الخلْق وجنايتهم عليه .

المشهد الأول : مشهد « القدر » :

هو المشهد الذي ذكره الشيخ رحمه الله ، وهو مشهد « القدَر » ، وأن ما جرى عليه بمشيئة الله وقضائه وقدره فيراه ، كالتأذِّي بالحرِّ والبرْد ، والمرض والألم ، وهبوب الرياح وانقطاع الأمطار ؛ فإنَّ الكل أوجبتْه مشيئة الله ، فما شاء الله كان ووجب وجوده ، وما لم يشأ لم يكن وامتنع وجوده ، وإذا شهد هذا : استراح ، وعلم أنه كائن لا محالة ؛ فما للجزع منه وجه ، وهو كالجزع من الحرِّ والبرْدِ والمَرض والموت »[٢] .

---

(١) ،(٢) مدارج السالكين ٢/٣١٨ .

قال ابن القيم رحمه الله : « فتعْذرهم بالقدر في حقِّك ، لا في حق ربِّك ، فهذا حق ، وهو من شأن سادات العارفين ، وخواصِّ أولياء الله الكُمَّل ، يفنى أحدُهم عن حقِّه ، ويستوفي حقَّ ربِّه . ينظر في التفريط في حقِّه ، وفي الجناية عليه إلى القَدَر ، وينظر في حقِّ الله إلى الأمر ، فيطلب لهم العذْر في حقِّه ، ويمحو عنهم العذْر ويطلبه في حقِّ الله .

وهذه كانت حال نبينا ﷺ ، كما قالت عائشة رضي الله عنها : « ما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه قطُّ ، ولا نيل منه شيءٌ فانتقم لنفسه ، إلّا أن تُنتهك محارمُ الله ، فإذا انتُهكت محارم الله لم يَقُمْ لغضبه شيء حتى ينتقم لله » .

وقالت عائشة رضي الله عنها : « ما ضرب رسول الله ﷺ بيده خادِمًا ، ولا دابَّة ولا شيئًا قطُّ ، إلّا أن يجاهد في سبيل الله » .

وقال أنس رضي الله عنه : « خدمتُ النبي ﷺ عشر سنين ، فما قال لي لشيء صنعتُه : لِمَ صنعتَه ؟ ولا لشيءٍ لمْ أصنعْه : لِمَ لَمْ تصنعْه ؟ وكان إذا عاتبني بعضُ أهلِه يقول : دعوه . فلو قُضي شيءٌ لَكان » .

فانظر إلى نظره إلى القدَر عند حقِّه ، وقيامه بالأمر ، وقطع يد المرأة عند حقِّ الله ، ولم يقل هناك : القدر حكم عليها .

وكان رسول الله ﷺ أعرفَ بالله وبحقِّه من أن يحتجَّ بالقدَر على ترْك أمره ، ويقبلَ الاحتجاجَ به من أحد ، ومع هذا فعذَر أنسًا بالقدَر في حقِّه وقال : « لو قُضي شيءٌ لكان » . فصلواتُ ربي وسلامه عليه »[(١)] .

المشهد الثاني : مشهد « الصبر » :

« فيشهده ، ويشهد وجوبه ، وحُسْن عاقبته وجزاء أهله ، وما يترتب عليه من الغِبْطة والسرور ، ويخلصه من ندامة المقابلة والانتقام ؛ فما انتقم أحد لنفسه

(١) مدارج السالكين ١/١٩٦ ، ١٩٧ .

قطُّ إلّا أعقبه ذلك ندامة ، وعلم أنه إن لم يصبر اختيارًا على هذا - وهو محمود - صبرَ اضطرارًا على أكبر منه وهو مذموم »[١] .

قال رسول الله ﷺ : « ليس الشديد بالصُّرعة ، وإنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب » .متفق عليه .

وعن عكرمة في قوله تعالى : ﴿ وسيِّدًا وحَصُورًا ﴾ [آل عمران : ٣٩] قال : السيد الذي لا يغلبه الغضب .

وقال رسول الله ﷺ : « مَن كظَم غيْظًا وهو قادر على أن يُنْفذه ، دعاه الله على رؤوس الخلائق ، حتى يخيِّره من الحُور العين ، يزوِّجه منها ما شاء »[٢] .

شتم رجلٌ سلمانَ الفارسيّ ، فقال له : « إن خفَّتْ موازيني فأنا شرٌّ مما تقول ، وإنْ ثقُلتْ موازيني لم يضرَّني ما تقول » .

وشتم رجلٌ الربيعَ بنَ خثيم ، فقال له : يا هذا ، قد سمِع الله كلامك ، وإنَّ دون الجنة عَقَبَة ، إن قطعتُها لم يضرَّني ما تقول ، وإن لم أقطعْها فأنا شرٌّ مما تقول .

وقالت امرأة : يا مرائي . فقال : ما عرفني غيرُك .

وقال علي بن زيد : أغلظَ رجلٌ من قريش لعمرَ بن عبد العزيز القول ، فأطرق عمر زمانا طويلًا ثم قال : أردتَ أن يستفزَّني الشيطان بعزِّ السلطان ، فأنال منك اليوم ما تناله مني غدًا .

---

(١) مدارج السالكين ٢/٣١٩ .

(٢) حسن : رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه ، وأحمد ، والطبراني في الصغير عن معاذ بن أنس ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٣٩٨ .

المشهد الثالث : مشهد « العفو والصفْح والحِلم » :

فإنه متى شِهد ذلك وفضْلَه وحلاوته وعزَّته ؛ لم يعدل عنه إلّا لعشى في بصيرته ؛ فإنه « ما زاد الله عبدًا بعفو إلّا عزًّا » ، كما صحَّ ذلك عن النبي ﷺ ، وعُلِمَ بالتجربة والوجود . وما انتقم أحد لنفسه إلا ذلَّ .

هذا ، وفي الصفح والعفو والحلم ؛ من الحلاوة والطمأنينة والسكينة وشرف النفس ، وعزها ورفعتها عن تشفيها بالانتقام : ما ليس شيء منه في المقابلة والانتقام .

ولله درُّ من قال :

لن يُدركَ المجدَ أقوامٌ وإن كَرُموا حتَّى يذلُّوا وإنْ عزُّوا لأقوامِ
ويُشتَموا فترى الألوان مسفرةً لا صفحَ ذلٍّ ولكنْ صفْح أحلامِ[1]

الأحنف بن قيْس سيِّد أهل المشرق ، المسمَّى بغير اسمه ، ومن يُضرب به المثلُ في الحلْم :

قال الأحنف رحمه الله : « وجدتُ الحلْم أنصر لي من الرجال » . وقال له رجل : علِّمني الحلْمَ يا أبا بحر . فقال : هو الذلُّ يا ابن أخي ، أتصبر عليه ؟!

وقال رحمه الله : « لستُ حليمًا ولكنني أتحالم »[2] .

ومن أخبار حلْمه : أنَّ رجلًا شتمه فسكت عنه ، وأعاد الرجل فسكت عنه ، وأعاد فسكت عنه ، فقال الرجل : « والهْفاه !! ما يمنعه من أن يردَّ عليّ إلّا هواني عنده » .[3]

وشتمه رجل وجعل يتبعه حتى بلغ حيَّهُ ، فقال الأحنف : « يا هذا ، إن كان بقي في نفسك شيءٌ فهاتِهِ وانصرفْ ؛ لا يسمعك بعضُ سفهائنا فتلقى ما

(١) لباب الآداب للأمير أسامة بن منقذ ص ٣٢٤ ، تحقيق : أحمد شاكر – دار الكتب السلفية .

(٢) العقد الفريد ١/٢٨٧ .

(٣) عيون الأخبار ١/٢٨٣ .

تكره » .

وكان رحمه الله يقول : « مَن لم يصبر على كلمة سمع كلمات ، ورُبَّ غيظٍ قد تجرَّعْته مخافةَ ما هو أشدُّ منه »(١) .

قيْس بن عاصم المنقري : وحلمه العجيب الذي يتعلَّمه الأحنف :

قال عنه رسول الله ﷺ : « هذا سيد أهل الوبر » .

قال الأحنف بن قيْس : « ما تعلَّمتُ الحلمَ إلّا من قيس بن عاصم المنقري ؛ لأنه قتلَ ابنُ أخٍ له بعضَ بنيه ، فأُتي بالقاتل مكتوفًا يُقاد إليه ، فقال : ذَعَرْتُم الفتى ! ثم أقبل على الفتى فقال : بئس ما فعلتَ !! نقصتَ عددَكَ ، وأوْهنتَ عَضُدك ، وأشمتَّ عدوَّك ، وأسأْتَ بقومك ، وأثمتَ بربِّك ، وقطعتَ رحمك ، ورميتَ نفسك بسهمِك . خلُّوا سبيله ، واحملوا إلى أمِّ المقتول دِيتَه ؛ فإنها غريبة ! ثم انصرف القاتل وما حلَّ قيسٌ حَبْوته ولا تغيَّر وجهه »(٢) .

روى مسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لِيَلِني منكم ذوو الأحلام والنهى ... » . الحديث . رواه مسلم .

قال الحسن : اطلبوا العلم وزيّنوه بالوقار والحِلْم .

قال معاوية رضي الله عنه : لا يبلغ الرَّجُلُ مبلغ الرأي حتى يغلب حلمُه جهلَه وصبرُه شهوتَه ، ولا يبلغ ذلك إلّا بقوَّة العلم .

وقال معاوية لعمرو بن الأهتم : أيُّ الرجال أشجع ؟ قال : مَن ردّ جهلَه بحلمه .

وقال أنس بن مالك في قوله تعالى : ﴿ **فإذا الذي بينَك وبيْنَه عداوة كأنَّه وليٌّ حميم** ﴾ : هو الرجل يشتمه أخوه فيقول : إنْ كنتَ كاذبًا فغفر الله

---

(١) عيون الأخبار ١/٢٨٤ ، ٢٨٧ .

(٢) وفيات الأعيان ٢/١٨٨ ، والبداية والنهاية ٨/٣٢٧ ، وقادة فتح بلاد فارس ص ٢٣٣ .

لك ، وإن كنتَ صادقًا فغفر الله لي .

وقال رجل لمالك بن دينار : بلغني أنك ذكرتَني بسوء ؟! قال : أنتَ أكرم عليّ من نفسي ، إني إذا فعلتُ ذلك أهديتُ لك حسناتي .

وقال رجل لبعض الحكماء : والله لأسبَّنّك سبًّا يدخل معك في قبرك . فقال : معك يدخل لا معي .

وضرب رجل قدمَ حكيم فأوجعه ، فلم يغضب ، فقيل له في ذلك ، فقال : أقمتُه مقام حجَرٍ تعثرتُ به ، فذبحتُ الغضب .

وقال محمود الوراق :

سأُلزِمُ نفسي الصفْحَ عن كلِّ مذنبٍ ... وإن كثرتْ منهُ عليَّ الجرائمُ
وما الناسُ إلّا واحدٌ من ثلاثةٍ ... شريفٌ ومشروفٌ ومثلي مقاومُ
فأمَّا الذي فوقي فأعرفُ قدْرَهُ ... وأتبعُ فيهِ الحقَّ والحقُّ لازمُ
وأمَّا الذي دُوني فإنْ قالَ صنتُ عنْ ... إجابتهِ عِرضي وإنْ لامَ لائمُ
وأمَّا الذي مِثْلي فإنْ زلَّ أو هَفَا ... تفضَّلتُ إنَّ الفضلَ بالحلْم حاكمُ

أمَّا العفو : فقد قال بعضهم : إذا أراد الله أن يُتحفَ عبدًا ، قيَّض له مَن يظلمه .

وقال بعضهم : ليس الحليم مَن ظُلِم فحَلَم ، حتى إذا قدَر انتقم ، ولكنَّ الحليم مَن ظُلِم فحلَم ، حتى إذا قدَر عفا . قال الله تعالى : ﴿ **وأنْ تعفُوا أقربُ للتقوى** ﴾ [البقرة : ٢٣٧] .

وإخوة يوسف باعوا أخاهم وأحزنوا أباهم ، فلمّا كمل له أمره ، وجمع أهله ، قال : ﴿ **لا تثريبَ عليكمُ اليوم يغفرُ الله لكمْ وهو أرحمُ الراحمين** ﴾ [يوسف : ٩٢] .

وقال رجل لعمر بن عبد العزيز : أشهد أنك من الفاسقين . قال : ليس تُقبل شهادتك .

المشهد الرابع : مشهد « الرضا » :

وهو فوق مشهد « العفو والصفح » ، وهذا لا يكون إلا للنفوس المطمئنة ، سيَّما إن كان ما أُصيبتْ به سببه القيامُ لله ، فإذا كان ما أصيب به في الله وفي مرضاته ومحبته ؛ رضيتْ بما نالها في الله . وهذا شأن كل محبٍّ صادق ، يرضى بما يناله في رضا محبوبه من المكاره ، ومتى تسخَّط به وتشكَّى منه ، كان ذلك دليلًا على كذبه في محبته . والواقع شاهد بذلك ، والمحبُّ الصادق كما قيل :

مِنْ أجلِكَ جعلتُ خَدِّى أرضًا للشامتِ والحسودِ حتى ترضى

ومن لم يرضَ بما يصيبه في سبيل محبوبه ، فلينزل عن درجة المحبة ، ولْيتأخرْ ؛ فليس من ذا الشأن .

المشهد الخامس : مشهد « الإحسان » :

وهو أرفع مما قبله . وهو أن يُقابل إساءة المسيء إليه بالإحسان ؛ فيحسن إليه كلَّما أساء هو إليه ، ويهوِّن هذا عليه علمُهُ بأنه قد ربح عليه ، وأنه قد أهدى إليه حسناته ، ومحاها من صحيفته ، وأثبتها في صحيفة مَن أساء إليه ، فينبغي لك أن تشكره ، وتحسن إليه بما لا نسبة له إلى ما أحسن به إليك .

وهاهنا ينفع استحضار مسألة اقتضاء الهبةِ الثوابَ ، وهذا المسكين قد وهبك حسناته . فإن كنتَ من أهل الكرم فأَثِبْه عليها ، لتثبتَ الهبة ، وتأمن رجوع الواهب فيها . وفي هذا حكايات معروفة عن أرباب المكارم ، وأهل العزائم .

ويهوِّنه عليك أيضًا : علمُك بأن الجزاء من جنس العمل ؛ فإن كان هذا عملك في إساءة المخلوق إليك عفوتَ عنه وأحسنتَ إليه ، مع حاجتك وضعفك وفقرك وذُلِّك . فهكذا يفعل المحسن القادر العزيز الغني بك في إساءتك ، يقابلها بما قابلتَ به إساءة عبدِه إليك . فهذا لا بدَّ منه ، وشاهده في السنة من وجوه كثيرة لمن تأمَّلها .

ومقابلة الإساءة بالإحسان من فضائل أعمال المقرَّبين ، واختيار الصدِّيقين ، ومنتهى درجات الصالحين .

فهذا الصدِّيقُ أبو بكر رضي الله عنه ؛ لمَّا حلف أن لا ينفق على مِسْطَح - وكان قريبه - لكونه تكلَّم في واقعة الإفك ؛ نزل قوله تعالى : ﴿ **ولا يأتَلِ أولو الفضل منكم** ﴾ إلى قوله : ﴿ **ألا تحبون أن يغفر الله لكم** ﴾ [النور : ٢٢] ، فقالَ أبو بكر : بلى ، نحبُّ ذلك . وعاد إلى الإنفاق عليه[١] .

« وسبَّ رجلٌ ابنَ عباس رضي الله عنهما ، فلمَّا فرغ قال : يا عكرمة ، هل للرجل حاجة ، فتقضيها ؟ فنكسَ الرجل رأسه واستحى .

وعن عليّ بن الحسين بن عليٍّ رضي الله عنهم أنه سبَّه رجل ، فرمى إليه بخميصة كانت عليه ، وأمر له بألف درهم . فقال بعضُهم : جُمع له خمس خصال محمودة : الحلم ، وإسقاط الأذى ، وتخليص الرجل مما يُبعد عن الله ، وحمْله على الندَم والتوبة ، ورجوعه إلى المدح بعد الذم ؛ اشترى جميع ذلك بشيء من الدنيا يسير »[٢] .

« قال إبراهيم التيمي : إن الرجل ليظلمني فأرحمه . وهذا إحسان وراء العفو ؛ لأنه يشتغل قلبه بتعرُّضه لمعصية الله تعالى بالظلم ، وأنه يُطالب يوم القيامة ، فلا يكون له جواب .

وقال الفضيل : ما رأيتُ أزهد من رجل من أهل خراسان جلس إليّ في المسجد ، ثم قام ليطوف فسُرقتْ دنانير كانت معه ، فجعل يبكي ، فقلت : أعلى الدنانير تبكي ؟ فقال : لا ، ولكن مثَّلتُني وإيَّاه بين يدي الله عز وجل ، فأشرف عقلي على إدحاض حجَّته ، فبكائي رحمة له !! »[٣] .

---

(١) حديث : « لما حلف أبو بكر ... » ، متفق عليه من حديث عائشة .

(٢) الإحياء ١٩٠/٣ .

(٣) الإحياء ١٩٥/٣ ، ١٩٦

الربيعُ بن خُثيم يدعو لسارقه :

« اشترى الربيع رحمه الله فرسًا بثلاثين ألفًا فغزا عليها ، ثم أرسل غلامه « يسار » يحتشُّ وقام يصلّي ، وربط فرسَه ، فجاء الغلام فقال : يا ربيع أين فرسُك ؟ قال : سُرقت يا يسار . قال : وأنت تنظر إليها ؟! قال : نعم يا يسار ؛ إني كنتُ أناجي ربي عز وجل فلم يشغلني عن مناجاة ربي شيء ، اللهمَّ إنه سرقني ولم أكن لأسرقه ، اللهمَّ إن كان غنيًّا فاهْدِه ، وإن كان فقيرًا فأَغْنه . ثلاث مرات »[١] .

لله درُّك يا أبا يزيد !! والله إن الكلمات لَتعجز عن تصوير جلال هذا المشهد ؛ « أَمَا والله لو رآك محمد ﷺ يا ربيع ، لَفَرِح بك » . هكذا قال أستاذك عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

قال عُبيد بن غاضرة العنبري :

إنَّا وإنْ كنَّا أَسِنَّةَ قَوْمِنَا وكانَ لنا فيهِمْ مَقامٌ مقدَّمُ
لَنصفحُ عنْ أشياءَ منهم تُرِيبُنا ونصدِفُ عن ذي الجهْل منهمْ ونحلمُ
ونمنحُ منهمْ معْشرًا يحسدوننا هَنِيَّ عطاءٍ ليسَ فيهِ تندُّمُ
ونكلؤُهُم بالغيب منَّا حفيظةً وأكبادُنا وجْدًا عليهمْ تَضَرَّمُ
فليسَ بمحمودٍ لدى الناسِ مَن جزى بسَيِّءٍ ما يأتي المُسِيءُ المُلَوَّمُ
سأحمِلُ عنْ قومي جميعَ كلُومِهمْ وأدفع عنهم كلَّ غُرْمٍ وأغرمُ[٢] .

المشهد السادس : مشهد « السلامة وبرد القلب » :

وهذا مشهد شريف جدًّا لمن عرَفه وذاق حلاوته ، وهو أن لا يشتغل

(١) الزهد لابن حنبل ص ٢٣١ - ٢٣٢ ، ومختصر قيام الليل للمقريزي ص ٢٧ .
(٢) لباب الآداب لابن منقذ ص ٣٢٤ - ٣٢٥

قلبه وسرُّه بما ناله من الأذى ، وطلب الوصول إلى درْك ثأره وشفاء نفسه ، بل يُفَرِّغ قلبه من ذلك ، ويرى أن سلامته وبرده وخلوَّه منه أنفع له ، وألذُّ وأطيب ، وأعون على مصالحه ؛ فإن القلب إذا اشتغل بشيء فاته ما هو أهمُّ عنده ، وخير له منه ، فيكون بذلك مغبونًا . والرشيد لا يرضى بذلك ، ويرى أنه من تصرُّفات السفيه ، فأين سلامة القلب من امتلائه بالغلِّ والوساوس ، وإعمال الفكْر في إدراك الانتقام ؟!

المشهد السابع : مشهد « الأمْن » :

فإنه إذا ترك المقابلة والانتقام ، أمِن ما هو شرٌّ من ذلك ، وإذا انتقم واقَعَهُ الخوف ولا بدَّ ؛ فإن ذلك يزرع العدواة ، والعاقل لا يأمن عدوَّه ولو كان حقيرًا . فكم مِن حقيرٍ أردىٰ عدوَّه الكبير !! فإذا غفر ولم ينتقم ولم يقابل ؛ أمِن من تولُّد العداوة أو زيادتها ، ولا بدَّ أن عفوه وحلمه وصفحه يكسر عنه شوكة عدوِّه ، ويكفُّ من جزَعه ، بعكس الانتقام ، والواقع شاهد بذلك أيضًا .

المشهد الثامن : مشهد « الجهاد » :

وهو أن يشهد تولُّد أذىٰ الناس له من جهاده في سبيل الله ، وأمرهم بالمعروف ، ونهيهم عن المنكر ، وإقامة دين الله ، وإعلاء كلماته .

وصاحب هذا المقام : قد اشترى الله منه نفسه وماله وعِرْضَه بأعظم الثمن ، فإن أراد أن يُسَلَّم إليه الثمن ، فليسلِّم هو السلعة ليستحقَّ ثمنها . فلا حقَّ له على من آذاه ، ولا شيء له قِبَله ، إن كان قد رضي بعقْد هذا التبايُع ؛ فإنه قد وجب أجرُه على الله .

وهذا ثابت بالنصِّ وإجماع الصحابة رضي الله عنهم ، ولهذا منع النبي ﷺ المهاجرين من سكنى مكة - أعزَّها الله - ولم يَرُدَّ على أحد منهم داره

ولا ماله الذي أخذه الكفار ، ولم يضمنهم دية مَن قتلوه في سبيل الله .

ولما عزم الصدِّيق رضي الله عنه على تضمين أهل الردَّة ما أتلفوه من نفوس المسلمين وأموالهم ؛ قال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه- بمشهد من الصحابة رضي الله عنهم - : « تلك دماء وأموال ذهبتْ في الله ، وأجورها على الله ، ولا دية لشهيد » . فأصفق الصحابة على قول عمر ، ووافقه عليه الصديق .

فمن قام لله حتى أوذي في الله ؛ حرَّم الله عليه الانتقام ، كما قال لقمان لابنه : ﴿ **وأْمُرْ بالمعروف وانْهَ عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور** ﴾ . [لقمان : ١٧] .

المشهد التاسع : مشهد « النِّعمْة »:

وذلك في وجوه :

أحدها : أن يشهد نعمة الله عليه في أنْ جعله مظلومًا يترقَّب النصر ، و لم يجعله ظالما يترقَّب المقْت والأخْذَ . فلو خُيِّر العاقل بين الحالتينْ - ولا بدَّ من إحداهما - لَاخْتار أن يكون مظلومًا .

ومنها : أن يشهد نعمة الله في التكفير بذلك مِن خطاياه ؛ فإنه ما أصاب المؤمنَ هَمٌّ ولا غمٌّ ولا أذًى إلَّا كفَّر الله به من خطاياه ، فذلك في الحقيقة دواء يُستخرج به منه داء الخطايا والذنوب ، ومَن رضي أن يلقى الله بَأدوائه كلها وأسقامه ، و لم يداوِه في الدنيا بدواء يُوجب له الشفاء ؛ فهو مغبون سفيه . فأذى الخلْق لك كالدواء الكريه من الطبيب المشْفِق عليك ، فلا تنظر إلى مرارة الدواء وكراهته ومَن كان على يديه ، وانظرْ إلى شفقة الطبيب الذي ركَّبه لك ، وبعثَه إليك على يدي مَن نَفعَك بمضرَّته .

ومنها: أن يشهد كوْن تلك البليَّة أهون وأسهل من غيرها؛ فإنه ما من محنة

إلَّا وفوْقها ما هو أقوى منها وأَمَرُّ ، فإن لم يكن فوقها محنة في البدن والمال ، فلينظرْ إلى سلامة دينه وإسلامه وتوحيده ، وأن كل مصيبة دون مصيبة الدين فهيِّنة ، وأنها في الحقيقة نعمة ، والمصيبة الحقيقية مصيبة الدين .

ومنها : توفية أجْرها وثوابها يوم الفقر والفاقة ، وفي بعض الآثار : أنه يتمنَّى أناسٌ يوم القيامة لو أنَّ جلودَهم كانت تُقْرَض بالمقاريض ، لِمَا يرون من ثواب أهل البلاء .

هذا، وإن العبد لَيشتدُّ فرحُه يوم القيامة بما له قِبَلَ الناسِ من الحقوق في المال والنفس والعِرْض ، فالعاقل يعدُّ هذا ذُخرًا ليوم الفقر والفاقة ، ولا يُبطله بالانتقام الذي لا يُجدي عليه شيئًا .

حبس أحدُ السلاطين رجلًا ، فكتب إليه بعض إخوانه الصالحين : اشكر الله . ثم ضُرب ، فكتب إليه : اشكرِ الله . ثم قُيِّد هو ومجوسي مبطون بقيْدٍ واحد ؛ فكان المجوسي يقوم بالليل لقضاء الحاجة مرَّاتٍ ، وكلَّما ذهبَ ذهبَ معه الرجل ، فيقف على رأسه حتى يقضيَ حاجته ، فكتب إليه صاحبه : اشكر الله . فقال : على ماذا أشكر الله ؟! وأيُّ بلاء فوقَ ما أنا فيه ؟! فكتب إليه : لو جُعل الزنار الذي في وسَطه في وسَطك كما جعل القيْد في رِجْلك ، ما كنت تصنع ؟ فاشكرِ الله على سلامة الدين .

المشهد العاشر : مشهد « الأُسْوَة » :

وهو مشهد شريف لطيف جدًّا ؛ فإن العاقل اللبيب يرضىٰ أن يكون له أسوة برسُل الله وأنبيائه ، وأوليائه وخاصَّته من خلقه ؛ فإنهم أشدُّ الخلْق امتحانًا بالناس ، وأذى الناس إليهم أسرع من السيْل في الحُدُور ، ويكفي تدبُّر قصص الأنبياء عليهم السلام مع أممهم ، وشأن نبينا ﷺ وأذى أعدائه له بما لم يُؤذَه مَنْ قبلَه . وقد قال له وَرَقة بن نوفل : « لَتُكَذَّبنَّ ، ولَتُخْرَجَنَّ ، وَلتُؤْذَيَنَّ » . وقال له : « ما جاء أحد بمثل ما جئتَ به إلا عُودي » . وهذا

مستمرٌّ في ورثته كما كان في مورثهم ﷺ . أفلا يرضى العبد أن يكون له أسوة بخيار خلْق الله ، وخواصِّ عباده ؛ الأمثل فالأمثل ؟!

ومَن أحبَّ معرفة ذلك فليقفْ على مِحَنِ العلماء ، وأذى الجهَّال لهم . وقد صنف في ذلك ابن عبد البر كتابًا سمَّاه « محنُ العلماء » .

المشهد الحادي عشر : مشهد « التوحيد » :

وهو أجلُّ المشاهد وأرفعها . فإذا امتلأ قلبه بمحبَّة الله ، والإخلاص له ومعاملته، وإيثار مرضاته، والتقرُّب إليه ، وقرَّة العيْن به ، والإنس به ، واطمأنَّ إليه ، وسكن إليه ، واشتاق إلى لقائه ، واتخذه وليًّا دون مَن سواه ، بحيث فَوَّض إليه أموره كلها ، ورضي به وبأقضيته ، وفني بحبِّه وخوْفه ورجائه وذكْره والتوكُّل عليه ، عن كلِّ ما سواه - فإنه لا يبقى في قلبه متَّسع لشهود أذى الناس له ألبتة ، فضلًا عن أن يشتغل قلبه وفكْره وسِرُّه بتطلُّب الانتقام والمقابلة ؛ فهذا لا يكون إلّا مِن قلبٍ ليس فيه ما يُغنيه عن ذلك ويعوِّضه منه ، فهو قلبٌ جائع غير شبعان ؛ فإذا رأى أيَّ طعام رآه هَفَتْ إليه نوازعه ، وانبعثتْ إليه دواعيه . وأما مَنِ امتلأ قلبه بأعلى الأغذية وأشرفها ؛ فإنه لا يلتفت إلى ما دونها . وذلك فضْل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

فمَن عامَل الخلْقَ بهذه المعاملة ؛ « من إقامة أعذارهم ، والعفو عنهم ، وترْك مقابلتهم ؛ استوتْ كراهتُهم ومحبتهم له ، وكان ذلك سببًا لنجاتهم الأخروية أيضًا ؛ إذ يرشدهم ذلك إلى القبول منه ، وتلقِّي ما يأمرهم به وينهاهم عنه أحسنَ التلقِّي . وهذه طباع الناس »(١) .

« الدرجة الثانية : تحسينُ خُلُقك مع الحقِّ ؛ وتحسينه منك : أنْ تعلم أنَّ كلَّ ما يأتي منك يُوجب عُذرًا ، وأنَّ كل ما يأتي من الحقّ يوجب شكرًا ،

---

(١) مدارج السالكين ٢/٣٢٤

وأن لا ترى له من الوفاء بُدًّا » .

لله دَرُّك يا شيخ الإسلام الهروي !! ما أطيب وأعطر هذا القول منك !!

قال شيخ الإسلام ابن القيِّم شارحًا : « هذه الدرجة مبنيَّة على قاعدتيْن :

إحداهما : **أن تعلم أنك ناقص** : وكلُّ ما يأتي من الناقص ناقص ، فهو يُوجب اعتذاره منه لا محالة ، فعلى العبد أن يعتذر إلى ربِّه من كلِّ ما يأتي به من خير وشرٍّ ؛ أما الشرُّ : فظاهر ، وأما الخير : فيعتذر من نقصانه ، ولا يراه صالحًا لربِّه ، فهو - مع إحسانه - معتذر في إحسانه ، ولذلك مدَح الله أولياءه بالوَجَل منه مع إحسانهم،بقوله : ﴿ **والذين يُؤْتون ما آتوا وقلوبُهم وَجِلة** ﴾ [المؤمنون : ٦٠] وقال النبي ﷺ : « هو الرجل يصوم ويتصدق ، ويخاف أن لا يُقْبَل منه » . فإذا خاف فهو بالاعتذار أولى . والحامل له على هذا الاعتذار أمران :

أحدهما :شهود تقصيره ونقصانه .

والثاني :صدق محبَّته : فإن المحبَّ الصادق يتقرب إلى محبوبه بغاية إمكانه ، وهو معتذر إليه ، مُسْتَحْيٍ منه : أن يواجهه بما واجهه به ، وهو يرى أن قدْرَه فوقه وأجلُّ منه ، وهذا مشاهد في محبَّة المخلوقين .

القاعدة الثانية : **استعظام كل ما يصدر منه سبحانه إليك** : والاعتراف بأنه يُوجب الشكر عليك ، وأنك عاجز عن شكره ، ولا يتبين هذا إلّا في المحبَّة الصادقة ؛ فإن المحبَّ يستكثر من محبوبه كل ما يناله ، فإذا ذكره بشيء وأعطاه إياه ؛ كان سروره بذكْره له ، وتأهيله لعطائه : أعظم عنده من سروره بذلك العطاء ، بل يغيب بسروره بذكْره له عن سروره بالعطيَّة ، وإن كان المحبُّ يسرُّه ذكْر محبوبه له ، وإن ناله بمساءة . كما قال القائل :

لئنْ ساءني أنْ نلتَني بمساءةٍ لقدْ سرَّني أني خطرتُ ببالِكَا

فكيف إذا ناله محبوبه بمسرَّة ، وإن دقَّتْ ؟! فإنه لا يراها إلا جليلة خطيرة .

فكيف هذا مع الربِّ تعالى الذي لا يأتي أبدًا إلّا بالخير ؟! ويستحيل خلافَ ذلك في حقّه . كما يستحيل عليه خلاف كماله . وقد أفصح أعرف الخلْق بربّه عن هذا بقوله : « والشرُّ ليسَ إليك » . أي لا يضاف إليك ، ولا ينسب إليك ، ولا يصدر منك ؛ فإن أسماءه كلها حسنىٰ ، وصفاته كلها كمال ، وأفعاله كلها فضْل وعدْل ، وحكمة ورحمة ومصلحة ، فبأي وجه ينسب الشرُّ إليه سبحانه وتعالى ؟! فكل ما يأتي منه فله عليه الحمد والشكر ، وله فيه النعمة والفضل .

قوله : « وأن لا يرى من الوفاء بدًّا » :

يعني : أن معاملتك للحقِّ سبحانه بمقتضى الاعتذار من كل ما منك ، والشكر على ما منه : عقدٌ مع الله تعالى ، لازم لك أبدًا ، لا ترى من الوفاء به بدًّا . فليس ذلك بأمر عارض ، وحال يحول ، بل عقد لازم عليك الوفاء به إلى يوم القيامة »(١) .

« الدرجة الثالثة : التخلُّق بتصفية الخُلُق ، ثم الصعود عن تفرقة التخلُّق ، ثم التخلُّق بمجاوزة الأخلاق » :

« هذه الدرجة ثلاثة أشياء :

أحدها : تصفية الخُلُق بتكميل ما ذُكِر في الدرجتين قبله ؛ فيصفِّيه من كل شائبة وقذًى ومشوش ، فإذا فعلتَ ذلك صعدتَ من تفرقته إلى جمعيَّتك على الله ؛ فإن التخلُّق تهذيب واستعداد للجمعية ؛ وإنما سمَّاه تفرقة لأنه اشتغال بالغير ، والسلوك يقتضي الإقبال بالكلِّية ، والاشتغال بالربِّ وحده عمَّا سواه .

ثم يصعد إلى ما فوق ذلك ، وهو مجاوزة الأخلاق كلها بأنْ يغيب عن

---

(١) مدارج السالكين ٢/٣٢٤ - ٣٢٦

الخلق والتخلُّق . وهذه الغيبة لها مرتبتان :

إحداهما : الاشتغال بالله عن كلّ ما سواه .

والثانية : الفناء في الفردانية التي يسمُّونها « حضرة الجمع » ، وهي موهبية لا كسبيَّة ، لكن العبد إذا تعرَّض وصدَق في الطلب ، رُجي له الظفر بمطلوبه . والله أعلم » انتهى كلام ابن القيم .

كنْ مع الحقِّ بلا خَلْقٍ ، ومع الخَلْق بلا نفْس :

قال ابن القيِّم : « ومدار حسْنِ الخُلُق مع الحقِّ ، ومع الخلْق : على حرفيْن ، ذكرهما عبد القادر الجيلاني ؛ فقال : « كنْ مع الحقِّ بلا خَلْق ، ومع الخلْق بلا نفس » .

فتأمَّل ، ما أجلَّ هاتيْن الكلمتيْن ، مع اختصارهما ، وما أجمعهما لقواعد السلوك ولكل خلُق جميل !! وفساد الخلُق إنما ينشأ من توسُّط الخلق بينك وبين الله تعالى ، وتوسُّط النفْس بينك وبين خلْقه ، فمتى عزلتَ الخلْق ، حالَ كونك مع الله تعالى ، وعزلتَ النفس ، حال كونك مع الخلق ، فقد فزتَ بكلِّ ما أشار إليه القوم ، وشمَّروا إليه ، وحاموا حوْله . والله المستعان » .

نفائسُ وأمثلةٌ عَطِرةٌ مِن حُسْن خُلُقِ سَلَفِنا :

الإمام ابنُ منده وحُسْن خلُقه : « مَن كتَب عني حديثًا فأنا له عبد » :

قال يحيىٰ بن منده : كان عمي سيْفًا على أهل البدع ، وهو أكبر من أن يُثني عليه مثلي ، كان - والله - آمرًا بالمعروف ، ناهيًا عن المنكر ، كثير الذكر ، قاهرًا لنفسه ، عظيم الحلم كثيرَ العلم ؛ قرأتُ عليه قول شعبة : مَن كتبت عنه حديثًا فأنا له عبد ؛ فقال عمي : من كتب عني حديثًا فأنا له عبد[1] .

---

(١) انظر ترجمته في السير ١٨/٣٤٩ - ٣٥٤ .

الإمام أبو إسحاق الشيرازي وحُسْن خُلُقه :

قال خطيب الموصل أبو المفضَّل : حدَّثني أبي قال : توجَّهتُ من المَوْصل سنة ٤٥٩هـ إلى أبي إسحاق ، فلمَّا حضرتُ عنده ، رحَّبَ بي وقال : من أين أنت !؟ فقلتُ : من المَوْصل . قال : مرحبًا ؛ أنت بلديِّي . قلتُ : يا سيِّدَنا ، أنت من فيروزآباد ؟! قال : أمَا جمعتْنا سفينة نوح ؟! فشاهدتُ من حُسْن أخلاقه ولطافته وزهده ، ما حبَّب إليَّ لزومه ، فصحبتُه إلى أن مات[1] .

وقيل : إن أبا إسحاق نزع عمامته - وكانت بعشرين دينارًا - وتوضَّأ في دجلة ، فجاء لصٌّ فأخذها وترك عمامةً رديئة بَدَلها ، فطلع الشيخ فلبِسها ، وما شعر حتى سألوه وهو يدرِّس ، فقال : لعلَّ الذي أخذها محتاج[2] .

إبراهيمُ بنُ أدهمَ أستاذُ الأُستاذِين في حُسن الخُلُق :

« خرج رحمه الله إلى بعض البراري ، فاستقبله رَجل جنديٌّ ، فقال : أنت عبد ؟ قال : نعم . فقال له : أين العمران ؟ فأشار إلى المقبرة ، فقال الجندي : إنما أردتُ العمران !! فقال : هو المقبرة . فغاظه ذلك فضرب رأسَه بالسوط فشجَّه ، وردَّه إلى البلد فاستقبله أصحابه ، فقالوا : ما الخبر ؟ فأخبرهم الجندي ما قال له ، فقالوا : هذا إبراهيم بن أدهم !! فنزل الجندي عن فرسه وقبَّل يديْه ورجليْه ، وجعل يعتذر إليه ، فقيل بعد ذلك له : لِمَ قلتَ له : أنا عبد ؟ فقال : إنه لم يسألني : عبدُ من أنت ، بل قال : أنت عبد ؟ فقلتُ : نعم ؛ لأني عبد الله ، فلمَّا ضرب رأسي سألتُ الله له الجنة . فقيل : كيف وقد ظلمك ؟ فقال : علمتُ أنني أُؤجَر على ما نالني منه ، فلم أُرِدْ أن يكون نصيبي منه الخير ونصيبُه مني الشرَّ »[3] .

---

(١) ، (٢) انظر الترجمة في السير ١٨/ ٤٥٢ - ٤٦٤ .

(٣) الإحياء ٣/ ٧٦

شيْخ الإسلام أبو عثمان الحِيري يعلِّمنا حُسْن الخُلق : « إنّ مَنِ استحقَّ النارَ فصُولح على الرماد ، لم يجُزْ له أن يغضب » :

« اجتاز رحمه الله يومًا في سكَّة ، فطرحت عليه إجانة رماد ، فنزل عن دابَّته فسجد سجدة الشكر ، ثم جعل ينفُض الرماد عن ثيابه ، و لم يقلْ شيئًا ، فقيل : ألا زبرتهم ؟ فقال : إنَّ من استحقَّ النارَ فصُولح على الرَّمَاد ، لم يجُزْ له أن يغضب .

ودُعي أبو عثمان الحيري إلى دعوة ، وكان الداعي قد أراد تجربته ، فلمَّا بلغ منزله قال له : ليس لي وجه . فرجع أبو عثمان ، فلمَّا ذهب غيرَ بعيد ، دعاه ثانيًا فقال له : يا أستاذ ، ارجعْ . فرجع أبو عثمان ، فقال له مثل مقالته الأولى فرجع ، ثم دعاه الثالثة وقال : ارجعْ على ما يُوجب الوقت . فرجع ، فلمَّا بلغ الباب ، قال له مثل مقالته الأولى ، فرجع أبو عثمان ، ثم جاءه الرابعة فردَّه ، حتى عامله بذلك مرَّات وأبو عثمان لا يتغيّر من ذلك ، فأكبَّ على رجليْه وقال : يا أستاذ ، إنما أردتُ أن أختبرك ، فما أحسن خلُقَك !! فقال : إن الذي رأيتَ مني هو خلُق الكلْب ؛ إن الكلب إذا دُعي أجاب وإذا زُجرَ انزجر »[1] .

« من أين تعلمتَ الحِلْم ؟ » :

« وقيل للأحنف بن قيس : مِن أين تعلَّمتَ الحِلْم ؟ فقال : من قيس ابن عاصم . قيل : وما بلغ حلمه ؟ قال : بينما هو جالس في داره ، إذ أتته جارية له بسَفُود عليه شِواء ، فسقط من يَدها ، فوقع على ابنٍ له صغير فمات ، فدُهِشَتِ الجارية ، فقال لها : لا روعَ عليك ؛ أنت حرَّة لوجه الله تعالى »[2] .

---

(١) الإحياء ٣/٧٦

(٢) الإحياء ٣/ ٧٧

« إنْ كان ولا بُدَّ ، فارموني بالصِّغَار » :

« وقيل : إن أُويسًا القرني كان إذا رآه الصبيان يرمُونه بالحجارة ، فكان يقول لهم : يا إخوتاه ، إن كان ولا بدَّ فارموني بالصِّغَار ؛ حتى لا تُدموا ساقي ، فتمنعوني عن الصلاة »(١) .

« يا هذه ، وجدتِ اسمي الذي أضلَّه أهلُ البصرة » :

« وقالت امرأة لمالك بن دينار رحمه الله : يا مرائي . فقال : يا هذه ، وجدتِ اسمي الذي أضلَّه أهل البصرة »(٢) .

« لأتعلَّم الحلْم عليه » :

« وكان ليحيى بن زياد الحارثي غلامُ سوءٍ ، فقيل له : لِمَ تُمْسِكه ؟ فقال : لأتعلَّمَ الحلْمَ عليه »(٣) .

علامة حُسْن الخُلُق :

قال يوسف بن أسباط : علامة حُسْن الخلق عشرُ خصالٍ :

١ - قلّة الخلاف . ٢ - وحسْن الإنصاف . ٣ - وترْك طلب العثرات .

٤ - وتحسين ما يبدو من السيئات . ٥ - والْتماس المعذرة . ٦ - واحتمال الأذى .

٧ - والرجوع بالملامة على النفس . ٨ - والتفرُّد بمعرفة عيوب نفسِه دون غيره .

٩ - وطلاقة الوجه للصغير والكبير . ١٠ - ولطْف الكلام لمن دُونه ولمن فوْقه .

---

(١) ، (٢) ، (٣) الإحياء ٣/٧٧ .

وسُئل سهل عن حسن الخلُق فقال : « أدناه احتمال الأذى ، وترْك المكافأة ، والرحمة للظالم والاستغفار له ، والشفقة عليه »[(١)] .

ونمضي مع قافلة النور وركْب السادة :

« كان الفُضَيل بن عِياض رحمه الله إذا قيل له : إن فلانًا يقع في عِرْضك ؛ يقول : والله لأغيظنَّ من أمره . يعني إبليس ، ثم يقول : اللهمَّ إن كان صادقًا فاغفرْ لي ، وإن كان كاذبًا فاغفر له .

وقد كان أبو معاوية الأسود يدعو لمن نال منه .

وشتم رجل بكر بن عبد الله المزني رحمه الله ، وبالَغ في شتْمه وهو ساكت ، فقيل له : ألَا تشتمه كما شتمك ؟! فقال : إني لا أعرف له شيئًا من المساوي حتى أشتمه به ، ولا يحلُّ لي أن أرميَه بالكذب .

وقال رجل لثور بن يزيد رحمه الله : يا قَدَري ، يا رافضي . فقال له : إن كنتُ كما قلتَ لي ، فأنا رجلُ سوءٍ ، وإن كنتُ على خلافِ ذلك فأنتَ في حلٍّ مني .

وقد قال رجل مرةً لسالم بن عبد الله بن عمر رضي الله عنهم : يا شيخ السوء : فقال له سالم : ما أراك أبعدتَ يا أخي »[(٢)] .

لطيفة :

الحلْمُ على خمسة أقسام :

قال السريّ السقطي : الحلم على خمسة أقسام :

---

(١) الإحياء ٣/٧٧ .

(٢) تنبيه المغترين للشعراني ص ٧١ - ٧٢ - طبع : عيسى الحلبي .

الأول : حلم غريزي : وهو هبة من الله تعالى للعبد ، به يعفو عمَّن ظلمه ، ويعطي من حرمه ويصل به رحمه وإن قطَعَه .

والثاني : حلم تحالم : وهو أن يكظم العبدُ غيظه رجاءَ الثواب ، وفي القلب كراهة .

الثالث : حلم مذموم : وهو حلْم العبد على مَن جنىٰ عليه ، رياءً وسمعة ؛ يعني يرائي به جلساءَه وهو حاقد ساكت .

الرابع : حلم كِبْر : وهو أن الشخص لا يراه أهلًا بأن يجاوبه .

الخامس : حلْم مهابة ومذلَّة[1] . اهـ .

فاعلمْ ذلك ؛ فإنه نفيس جاءَك به السريُّ .

« مدحوا عند الفضيل بن عياض رجلًا ، وقالوا : إنه لا يأكل الخبيص . فقال : وما تَرْكُ أَكْل الخبيص ؟! انظروا كيف صلتُه للرحم !! انظروا كيف كظمُه للغيظ !! انظروا كيف عطْفُه على الجار والأرملة واليتيم !! انظروا كيف حسن خلقه مع إخوانه !!

وكان حاتم الأصمُّ يقول : قد قلَّتْ أخلاق الرجال في ثلاث : تعظيم أخلاق الإخوان ، وستْر معايبهم ، واحتمال أذاهم »[2] .

محمد بن واسع يُحسن إلى شاةٍ صَحِبَتْه :

« كان محمد بن واسع يقول : لا يبلغ العبد مقام الإحسان حتى يُحسن إلى كلِّ مَن صَحِبَه ولو ساعة . وكان إذا باع شاة يوصي بها المشتري ويقول : قد كان لها معنا صُحْبَة »[3] .

---

(١) تنبيه المغترين ص ٧٢ .

(٢) ، (٣) تنبيه المغترين ص ٣١ .

ومسْكُ الختامِ : حديثُ عُلبة بن زيد بن حَارثة الأنصاري الأوْسي ، صاحبِ الخُلُق التّمام :

لله دَرُّه من صحابي جليل !!

روى ابن منده بإسناده : « كان علبة بن زيد بن حارثة رجلًا من أصحاب النبي ﷺ ، فلما حضَّ على الصدقة ، جاء كلُّ رجل منهم بطاقتِه وما عنده ، فقال علبة بن زيد : اللهم إنه ليس عندي ما أتصدَّق به ؛ اللهم إني أتصدَّق بعِرْضي على مَن ناله مِن خلْقِك . فأمر رسول الله ﷺ مناديًا فنادى : أين المتصدِّق بعرضه البارحة ؟ فقام عُلبة ، فقال : « قد قُبِلتْ صدقتُكَ » . وفي زاد المعاد : فقال النبي ﷺ : « أبشرْ ؛ فوالذي نفسُ محمدٍ بيده ، لقد كُتِبَتْ في الزكاة المتقبَّلة » .

هذه نفوس قد ذُلِّلتْ بالمجاهدة ، فاعتدلتْ وطابت أخلاقُها ، ونُقِّيت من الغشِّ والغلِّ بواطنُها فأثمرت الأطايب ، فظهرت العلامات على ظواهرهم ، فمَن لم يصادفْ من نفسه هذه العلامات ، فلا ينبغي أن يغترَّ بنفسه فيظنَّ بها حُسْن الخُلُق ؛ فإنها درجة رفيعة لا ينالها إلّا المقرَّبون والصِّدِّيقون .

* * *